رمضانيات السيرة

محمد مسعد ياقوت

مقدمة

إليك أخي هذه الوقفات والنظرات في بعض الأحداث الرمضانية في سيرة خير البرية .. ألستَ معي أن شهر رمضان فرصةٌ سانحة لإحياء معانٍ جليلة، وقيمٍ كريمة، وفضائل عزيزة، كتلك التي نراه في إيمانيات نزول الوحي، وأخلاقيات خديجة، وتربويات بدر، وانتصارات الفتح، وغيرها، وغيرها ...

وفي الشهر الفضيل؛ إن لم نجعل السيرة العطرة واقعًا حيًا في حياتنا؛ فمتى ؟

إن لم نتدارس أيام الله كيوم الفرقان ويوم الفتح، فمتى؟

لقد كانت السيرة النبوية والمغازي أيام السلف الصالح؛ علم السلاطين والملوك، فكانوا يجدون في دراستها دروةً تدريبية مخدومة في أصول الحُكم وسياسة الناس، فلما طال الأمد وقست القلوب؛ انفض جل الناس عن مدارسة السيرة، وباتت السيرة هي ملاذ الدعاة الربانيين وسلاح الخطباء المخلصين، وقليل ما هم. فعسى أن تكون هذه الوجبة الخفيفة فاتحة خير لمن أراد الأقبال على سيرة المصطفى بعد رمضان، لاسيما في هذا الزمان الذي يُسب في الرسول ويُهان، فأحرى بنا أن نتعلم سيرته، وقد تعلمها المستشرقون وفهموها بل وحفظوها، لا للعمل بها إنما لمحاربة صاحبها – صلوات الله وسلامه عليه .

نسأل الله العلي القدير أن ينفعنا بسيرته .

محمد مسعد ياقوت
yakoote@gmail.com
0020104420539
0020122885240

تَفَكّر وتعبّدْ وتَعلَّمْ
[البداية كانت في رمضان]

عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قالت :

"أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ.. ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الْخَلاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ؛ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ ! قَالَ : "مَا أَنَا بِقَارِئٍ "، قَالَ : " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ ! قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ! فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأْ ! فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ :(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)..." [البخاري : 3]..

هكذا كانت البداية :" تفكر "، وهكذا كان العمل الأول : " التحنث وهو التعبد"، وهكذا كانت الكلمة الأولى : " اقرأ " ..
وفي " مطبخ " التفكر والتعبد والقراءة، يصنع الله المصلحين على عين، ويعدهم لمهمة الدعوة والإرشاد، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فيأدبهم في صوامع العبادة بأدبه، ويزكيهم في خلوة التفكر، ويعلمهم في حِلق القراءة ..
فما أحوج المسلم إلى ثلاث ساعات في يومه وليلته، ساعة يتفكر مختليًا بربه، وساعة يتعبد فيها بقيام، وساعة يتثقف فيها بكتاب ..
ففي التفكر تصفية للذهن، وفي العبادة تربية للنفس، وفي القراءة تثقيف للعقل. وكلها من معينات الإنسان على حياته، ومن موقيات المسلم على دينه، ومن محفزات الداعي في دعوته .
وفي كل مرة، يذهبُ فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى غار حراء، ليتزود بهذا الزاد، كان عليه أن يصعد جبلاً شاهقًا، ويسلك طريقًا وعرًا، ليلاً، مشيًا، وحيدًا، في حمَّارة القيظ، وفي صبارة البَرْد ..
من أجل ماذا ؟
من أجل أن يتفكر . من أجل أن يتحنث . من أجل أن يتعلم .
فهذه الثلاثة لم تُنل إلا بشق الأنفس، " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا".
أما التفكر :
فيقول الله تعالى فيه :
" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ{190} الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي

خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{191}.. [آل عمران]
قال النبي – صلى الله عليه وسلم - :
" ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها " [ابن حبان 622، وصححه الألباني]
وفي الأثر :
" لا عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ "
وقيل : " فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة ".
والتفكّر نور، والغَفلة ظُلْمة، والتأمل باب من أبواب السعادة، وهو مفتاح العلم، ومن ثم فهو مفتاح العمل.
والتفكر صحة للعقل، والغفلة مفسدة للفهم؛ فإن الإنسان المتفكر المتأمل أصفى الناس ذهنًا، وأرحب الناس علمًا .

وأما التعبد :
فيقول الله تعالى فيه :
" وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً " [الفرقان :64]
"تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ" [السجدة :16]
" كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ " [الذاريات : 17]
" يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وِطَاءً وَأَقْوَمُ قِيلًا . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا " [المزمل : 1-6].
ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم - فيه :
" نعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ " [البخاري 1054]
وتقول عائشة في صفة تعبده – صلى الله عليه وسلم - :
"كَانَ يُصَلِّي إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً كَانَتْ تِلْكَ صَلَاتَهُ، يَسْجُدُ السَّجْدَةَ مِنْ ذَلِكَ قَدْرَ مَا يَقْرَأُ أَحَدُكُمْ خَمْسِينَ آيَةً قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ وَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ثُمَّ يَضْطَجِعُ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُنَادِي لِلصَّلَاةِ " [البخاري 1055].
وقال رسول الله ناصحًا :
"عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم" [الحاكم وحسنه الألباني في الإرواء 452].

وقال جعفر الخلدي: رأيت الحسن في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: طاحت تلك العبارات، وطارت تلك الإشارات، وفنيت تلك العلوم، ودرست الرسوم، فما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر.
وقال يوسف بن أسباط: إذا أخلص الرجل التعبد لله أربعين صباحاً أجرى الله على لسانه ينابيع الحكمة .
وقال أبو ذر – رضي الله عنه -: صلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور وصوموا في شدة الحر لحر النشور.

فالتعبد، وبالأحرى قيام الليل، صحة للبدن، وقوة للروح، ووَجاء للنفس، وجُنّة للقلب، وزاد للدعاة، وملاذ للعصاة، وروضة يرتع فيها المؤمنون، فيها رَوح للمكروبين، وشفاء للمكلومين، وجلاء للمهمومين، وعطاء للمحرومين . إن قيام الليل جنة الله في الأرض !

وأما التعلم :
فيقول الله تعالى فيه:
" قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ"[الزمر: 9].
ويقول النبي – صلى الله عليه وسلم - فيه:
"طلب العلم فريضة على كل مسلم" [ابن ماجه 81/1 وصححه الألباني]
" .. و إن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر" [البيهقي، وصححه الألأباني].
"إن الله أوحى إلي : أنه من سلك مسلكاً في طلب العلم سهلت له طريق الجنة، و من سلبت كريمتيه أثبته عليهما الجنة، و فضل في علم خير من فضل في عبادة، و ملاك الدين الورع" [البيهقي، وصححه الألأباني]
"ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع حتى يرجع" [البيهقي، وصححه الألباني]
"من علم علماً، فله أجر من عمل به، لا ينقص من أجر العامل شيء" [ابن ماجه، وحسنه الألباني]
"إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علما علمه ونشره، وولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه..." " [ابن ماجه، وحسنه الألباني]
وعن صفوان بن عسال المرادي – رضي الله عنه - قال:
أتيت النبي – صلى الله عليه وسلم - وهو في المسجد متكىء على برد له أحمر فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم .

فقال: " مرحبًا بطالب العلم .. إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب" [ابن ماجه، وحسنه الألباني]
وعن أبي أمامة قال: ذُكر لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- رجلان : أحدهما عابد والآخر عالم.. فقال - عليه أفضل الصلاة والسلام - : " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ".. ثم قال - رسول الله صلى الله عليه وسلم -:
"إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير" [الترمذي، وحسنه الألباني]

وكان أبو حنيفة رحمه الله إذا أخذته لذة المسائل (في طلب العلم) يقول: أين الملوك من لذة ما نحن فيه؟ لو فطنوا لقاتلونا عليها.
وقيل: من خلا بالعلم لم توحشه الخلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفته السلوة.
وقيل لابن المبارك: من تجالس؟ فقال: أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم-، إني أنظر في كتب آثارهم وأخبارهم.
ولذلك قال الصولي:
إن الكتابة والآداب قد جمعت ... بيني وبينك يا زين الورى نسبًا
وقال المتنبي :
أعزُّ مكانٍ في الدُنى سرْجُ سابحٍ ... وخيرُ جليسٍ في الزّمانِ كتابُ
وقال سقراط :
من لم يصبر على تعلم العلم وتعبه، صبر على شقاء الجهل.

والحمد لله الذي جعل تعلم العلم حسنة من الحسنات، وطلبه عبادة من العبادات، وبذله قربة من القربات، وجعل العلم نبراسًا لبناء الأمم والحضارات، ومنارة لتقدم الصناعات والمشروعات، وجعل العلم أفضل أنيس في الوحشة، وأحسن رفيق في الغربة، ووسيلة لاستنزال البركة، ودفع الكربة، وجلب الأحبة، وإفادة الصحبة، والعلم في الإسلام دين، ومن لا علم له لا دين له !

وأخيرًا أوصيك بهذه الثلاثية :
الأولى : رحلة قمرية دورية : تمارس فيها عبادة التفكر، التفكر في خلق الكون والنفس، التفكر في أحوال التاريخ وسننه، والموت وعظمته، والقبر وظلمته، واليوم الآخر وشدته.

والثانية : صلاة بليل: عليك بقيام الليل والتزود من النوافل، عليك أن تنقذ نفسك بكثرة السجود.
والثالثة: كتاب تقرأه : اقرأ . اقرأ . اقرأ ! في القرآن وعلومه، في الزهد والرقائق، في السير والمغازي، في التاريخ والتراجم، في الحديث والعقائد، في الفقه وأصوله، في الأدب واللغة، في علم النفس والصحة، في السياسة والاقتصاد، في التخطيط والتنمية ....كون مكتبتك، ورتب قرائتك، واستعن بشيخ يعلمك ويوجه، فلا تترك نفسك للكتب دون مرشد، فالكتب تصنع الحفّاظ، ولا تصنع الفقهاء .
فإذا فقهت هذه الثلاثية المحمدية، فلتجعل شعارك دومًا – مع نفسك محاسبًا – في ليلك ويومك:
هل تفكرتُ ؟ هل تعبدتُ ؟ هل تعلمتُ ؟
وإليك هذا البرنامج الثقافي المقترح لمدة ثلاثة أشهر
فتقوم بمطالعة كتابين في اليوم تقرأ فيهما ما شاء الله لك أن تقرأ مع المحافظة على قيام الليل والتفكر .
والعلة من الكتابين، مخافة الملل، فإذا مللت أحدهما فعليك بالآخر، أو إذا توفر أحدهما فعليك بالثاني .

	المادة الأولى	المادة الثانية
السبت	تفسير ابن كثير	تفسير " الظلال "
الأحد	الإيمان لمحمد نعيم ياسين – العقائد الإسلامية للسيد سابق	أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان
الإثنين	رياض الصالحين – صحيح البخاري	رسائل الدكتور عبد الله ناصح علون
الثلاثاء	الرحيق المختوم للمباركفوري – السيرة للصلابي	تعريف عام بدين الإسلام لعلي طنطاوي
الأربعاء	فقه السنة للسيد سابق – كتب الشيخ حسن أيوب	النحو التعليمي لمحمود سليمان ياقوت
الخميس	الإحياء أو مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة	رسائل الدكتور فتحي يكن
الجمعة	رحلة، أو ممارسة رياضة، أو زيارة آثار، أو سير	مختارات أدبية حرة في الشعر والنثر

والله لا يخزيك الله أبدًا

[الدرس الأول في الثبات، كان في رمضان]

"كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق".

بهذه الكلمات العظيمة تثَّبت أم المؤمنين خديجة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حدثها بشأن المَلك الذي نزل عليه بغار حراء، حيث قال لها معبرًا عن خشيته: "لقد خشيتُ على نفسي".

وكان دور المرأة والزوجة الصالحة هو تخفيف حدة الضنك التي لحقت بنبي الرحمة صلى الله عليه وسلم جراء هذه المقابلة الشديدة الصعبة مع "جبريل"، وتؤكد له عناية الله به، مدللة على خصال كريمة يتصف بها المصطفى، وسلوكيات طيبة يمارسها في مجتمعه.

فهي توضح له بكل صراحة أن الله لن يخزيه لعلة واحدة، هي أنه مواظب على جملة من العبادات الاجتماعية.. فلن يخزي الله من وصل الرحم، وصدق الحديث، وحمل الكَل، وأكرم الضيف، وأعان على نوائب الدهر!

إنها تتحدث إلى زوجها كطبيبة نفوس، وكفيلسوفة فكر، وكعالمة في سنن الله ونواميسه في الخليقة..إنها بكلماتها تلك تسبق ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والآفات والهلكات..." [صحيح، الحاكم، عن أنس].

هذا القلب الكبير الذي يحمل كُل هذا الخير للناس لا يخزيه الله، لن يصل الحُزن إلى قلبه، ولن يصل الخوف من الناس إلى وجدانه، بل ستنعم حياته، وينعم قلبه، ويزهو ويفرح، وينجلي غبار الضنك عن رأسه.

- "كلا"..

لن يحزن قلبك، ما دام يحمل الخير للناس..

- "أبشر"..

سيندمل الجرح، ويزول الوجع، وستمضي في طريق الحياة بهذا القلب الخيّر، يفيض منه النور إلى البشر، وتسرج به قلوبًا غلفًا، وعيونًا عميا، وآذانًا صما.

- "فوالله لا يخزيك الله أبدا"..

لست أنت بالوجه الذي يرده الله، ولست ولست أنت بالعبد الذي يتخلى عنه ربه، فأنت عبد أكرمت عباده، أشبعت جوعتهم، وأذهبت ظمأتهم، وكسوت عورتهم، ومسحت على رأس اليتيم، فكنت الأب، وعفوت عمن أساء إليك فكنت الأم:

وإذا رحمت فأنت أمٌّ أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء

لا يخزيك.. ولم ولن يخزيك الله أبدًا.. فأنعم بحياتك!

- "إنك لتصل الرحم"

فمن قطعك وصلته، تغني القريب الفقير، وتقوّي القريب الضعيف، أنت سند أهلك، ووتد أقاربك، لم يسمعوا منك إلا كل خير، ولم يروا منك إلا كل صلاح.. أنت لكبيرهم ابن، ولصغيرهم أب، ولصاحبهم أخ.

- "تصدق الحديث"

لا تكذب أبدًا، لا تغش أبدًا، لا تزور شهادة، ولا تدلس مقالة، لم يُعهد عليك كذبة واحدة في حياتك، ولم تتلطخ لحظة واحدة في براثن الكذب.

- "تحمل الكَل"

وهو العاجز، لا تُعينه وفقط، بل تحمله! ولا تحمله فقط، بل تحمله وحاجته! لا ينزل عنك إلا وقد قضيت مسألته، ورحمت ذلته، وأسعدت قلبه.

- "تقري الضيف"

ما أكرم الناس إذا نزلوا بدارك! وما أعظمهم إذا حلوا بحضرتك! أوقدت القدور، وجهزت النمارق، وقضيت الحاجات، فإن بات الضيف بدارك بات آمنًا عزيزًا، وإن انصرف؛ فمُكرم مسرور.

- "تعين على نوائب الدهر"

فمصائب الأيام كثيرة، وجراح الواقع كبيرة، فيأتيك طالب العون فتعينه على نائبته، ويأتيك المكروب فتعينه على كربته.. أنت الظَهر للبائسين، فأنت لجراحهم طبيب، وأنت ليتمهم أب.

والصدّيق كذلك!

و"أبو بكر" تلميذه العظيم! يسير على شرعته، ويمارس صنعته، ويُبتلى، فيخرج مهاجرًا نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ (برك الغماد) لقيه "ابن الدغنة" وهو سيد (القارة) فقال: "أين تريد يا أبا بكر؟" فقال أبو بكر: "أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي".

فقال ابن الدغنة: "فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج، ولا يُخرج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فأرجع فاعبد ربك ببلدك..

فأصحاب هذه الصنائع الخيرية، ما كان الله ليخزيهم، وما كان ليكلهم إلى بعيد كافر، أو إلى قريب ظالم، هم أحق بالتمكين، وأولى بسعادة الدنيا والآخرة، وكان حقًّا على الله أن يسخر لهم أمثال "ابن الدغنة".. ينصرهم ويؤازرهم، حتى ينعم صناع الخير في ظلال الله.

فاصنع خيرًا.. يسعد قلبك، ولا يخزيك الله.

وفاة السيدة خديجة .. دروس في فضائلها
[العاشر من رمضان السنة العاشرة من البعثة]

أطلق كُتَّابُ السيرِ على العامِ العاشر من البعثة، عام الحزن، لوفاة عم النبي " أبو طالب" ، وزوج النبي " خديجة " في شهر واحد تقريبًا .
ماتا - وهما السندان القويان – ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – في أمس الحاجة إليهما .
أما أبو طالب فكان بمثابة "السند الخارجي " لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – يدفع عنه أذى الوثنيين، وظلم الظالمين . ولعل في وفاته حكمة عظيمها، مفادها أن الدعوة الإسلامية منصورة بالله ثم بمنهجها، ويأبى الله أن يقال :إن الدعوة انتصرت بعشيرة محمد أو بعمه . إنما هي دعوة اليتيم الذي خذله بعض أعمامه ومات عنه بعضهم، وتأخر عنه بعضهم.

سبق وفضل:
أما خديجة فهي أول من آمنت به، وهي حصنه الداخلي، وركنه الشديد، وكانت بمثابة الوزير الصادق له، والرفيق الساعي له، تخفف عنه، وتواسيه ، وتسعى في قضاء حوائجه، وكانت – رضي الله عنها – قد أكرمت رسول الله بالعمل الكريم في تجارتها، وتزوجته – رضي الله عنه – رغم فقره، وأسكنته بيتها حيث لا بيت له يملكه ، وكانت تُنفق على رسول الله من مالها حين تفَرغ لأمر الرسالة، وآمنت به حين كفر الناس، وصدّقته حين كذبه الناس، وآوته حين طرده الناس .
فإذا دخل بيته إليها – بعد يوم شاق في الدعوة والتلبيغ – سرعان ما ينسى الألم والحزن، إذا تمسح بيدها الحانية على قلبه . وكانت – رضي الله عنها – امرأة حاذقة صَنَاعٌ في إدخال السرور على زوجها والتخفيف عنه . ولقد ضُرب بها المثل في طهارتها، وضُرب بها المثل في حكمتها وضُرب بها المثل في حصافتها.

***

الطُهر والعفة:
أما طهارتها، فقد كان لقبها في الجاهلية " الطاهرة "
والمرأة التي تحمل هذا اللقب في مجتمع جاهلي أكلته الفواحش، وجازت فيه الدعارة، واشتهرت فيه البغايا .. لهي امرأة بلغت من العفة والنقاء مبلغًا رفيعًا؛ أهْلَهَا لهذا الاصطفاء الرباني، أن اختارها الله زوجةً لخاتم الأنبياء .
ولله در العفة، بَلَّغَت أهلها الدرجات العلى !

***

الحكمة :
وأما حكمتها فهي صاحبة قولة تُعد من أبلغ ما دونه العرب في الحكمة، تلك التي قالت فيها - مخففة من خشية رسول الله على نفسه يوم نزلت " اقرأ " –
" كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ "[البخاري : 4572]، ثم انطلقت تمشي به إلى ورقة بن نوفل – وكان عالمًا بالأديان - ، لتَحُلَ لزوجها اللغز الذي أُشكل عليه في أمر النبوة. ولم تكن بالمرأة السلبية التي لا تبالي بشؤون زوجها .

***

الفطنة :

وأما حصافتها .. فهي ممن كمل من النساء.. وهي التي أثبتت لرسول الله أن ما يأتيه ليس بشيطان ولا جِن، فقد شرعت تمتحن برهان الوحي لتثّبت قلب زوجها، فقالت : "أَيْ ابْنَ عَمّ أَتَسْتَطِيعُ أَنّ تُخْبِرَنِي بِصَاحِبِك هَذَا الّذِي يَأْتِيك إذَا جَاءَك ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَتْ: فَإِذَا جَاءَك فَأَخْبِرْنِي بِهِ .

فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السّلَامُ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ -صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- لِخَدِيجَةَ يَا خَدِيجَةُ هَذَا جِبْرِيلُ قَدْ جَاءَنِي ، قَالَتْ : قُمْ يَا ابْنَ عَمّ فَاجْلِسْ عَلَى فَخِذِي الْيُسْرَى ؛ قَالَ فَقَامَ رَسُولُ اللّهِ- صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - فَجَلَسَ عَلَيْهَا ، قَالَتْ هَلْ تَرَاهُ ؟ قَالَ: نَعَمْ . قَالَتْ : فَتُحَوّلْ فَاجْلِسْ عَلَى فَخِذِي الْيُمْنَى.

فَتَحَوّلَ رَسُولُ اللّهِ - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- فَجَلَسَ عَلَى فَخِذِهَا الْيُمْنَى ، فَقَالَتْ هَلْ تَرَاهُ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَتْ : فَتَحَوّلْ فَاجْلِسْ فِي حِجْرِي .

فَتَحَوّلَ رَسُولُ اللّهِ -صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - فَجَلَسَ فِي حِجْرِهَا . قَالَتْ هَلْ تَرَاهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

فلما فَتَحَسّرَتْ وَأَلْقَتْ خِمَارَهَا وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ جَالِسٌ فِي حِجْرِهَا ، ثُمّ قَالَتْ لَهُ هَلْ تَرَاهُ ؟ قَالَ لَا ، قَالَتْ يَا ابْنَ عَمّ اُثْبُتْ وَأَبْشِرْ فَوَاَللّهِ إنّهُ لَمَلَكٌ وَمَا هَذَا بِشَيْطَانٍ " [ابن هشام : 1/238،]

فقد علمتْ – برجاحة عقلها – أن الملائكة تستحي، وأن الشياطين تستحي، فتحيلت هذه الحيلة، وفثبتت وبشرت رسول الله – صلى الله عليه وسلم - .

وخير الناس للناس من يَفطن لحاجاتهم، ومَن فاته العقلُ والفطنة فرَأْسُ مالِه الجَهْلُ.

***

الصبر على تطليق بناتها :

ولم يزعزع إيمانُها، ولم تتزحزح ثقتُها بزوجها يوم تسببت الدعوة الإسلامية – بزعم البعض – في تطليق بناتها .

" وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - قَدْ زَوّجَ عُتْبَةَ بْنَ أَبِي لَهَبٍ رُقَيّةَ أَوْ أُمّ كُلْثُومٍ . فَلَمّا بَادَى قُرَيْشًا بِأَمْرِ اللّهِ تَعَالَى وَبِالْعَدَاوَةِ، قَالُوا : إنّكُمْ قَدْ قَرّغْتُمْ مُحَمّدًا مِنْ هَمّهِ فَرُدّوا عَلَيْهِ بَنَاتِهِ فَاشْغَلُوهُ بِهِنّ . فَمَشَوْا إلَى أَبِي

الْعَاصِ فَقَالُوا لَهُ فَارِقْ صَاحِبَتَك وَنَحْنُ نُزَوّجُك أَيّ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ شِئْتَ قَالَ : لا وَاَللّهِ، إنّي لا أُفَارِقُ صَاحِبَتِي ، وَمَا أُحِبّ أَنّ لِي بِامْرَأَتِي امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ . وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- يُثْنِي عَلَيْهِ فِي صِهْرِهِ خَيْرًا ... ثُمّ مَشَوْا دار أبي لهب، فأجابهم، وطُلقت رقية وأم كلثوم " [ابن هشام 652/1 (بتصرف)].

ولم يصدر منها ولا من البنات لفظة تشائم أو تبرم، أن ابتلاهم الله بفض هاتين الزيجتين، ولم تقل خديجة كما تقول نساء بعض الدعاة : لقد جلبت لنا دعوتك خراب البيوت، وطلاق البنات ! ما ذنبهن ألا يفرحن ويُحْمَلن إلا أزواجهن؟!.....
لم تقل هذا . بل صبرت، ورأت أن حكمة الله اقتضت، أن يبدلنهن بزوج أكرم وأخلق وأغنى وأجمل مما كُنَّ يطمحن إليه . فحالهن مع الله كحال الطفل الذي سلبه أبوه الطعام الخبيث ومنحه الطعام الطيب الغريض.

الصبر على الحصار :
ولما كُتبت وثيقة الحصار الظالمة، وسيق المسلمين إلى الشِعِب، وقاطعتهم قريش وجوّعتهم، كانت خديجة مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – راضية محتسبة، ولم يصدر منها كلمة عتاب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم -، ولم تتبرم له، بل ثبتت معه في المحنة، وعزمت أن تبقى إلى جواره حتى تنقشع الظلمة، ورضيت أن تترك منزلها الفاخر وفراشها الوثير وتخرج حبيسة مع رسول الله بين جبلين، تُعاني الحَر والقَر، تفترش الحصباء وتلتحف السماء، وتكابد الجوع والفقر، وهي الغنية الحسيبة.. تكابد الظمأ والخشونة، وهي السيد الشريفة.. وطالت بها أيام الحصار وهي واثقة راسخة رسوخ الشم الروسي، سامقة سمو الجوزاء العوالي ..كل ذلك على مدار سنوات الحصار الثلاث من شهر المحرم للعام السابع للبعثة وحتى المحرم للعام العاشر للبعثة .

***

سلام وجَنَّة ورضوان
ولما انقشعت ظلمة الحصار، وتبدد كابوس السجن، خرجت – رضي الله عنها – وقد أعياها المرض، وبراها الجوع، وهدَّمت بنيانها سنوات الضنك، فخرجت من سجن الناس إلى رحاب الله الرحيب، بعدما بشرّها رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ببيت في الجنة من لؤلؤ – وبيوت الجنة قصور -، تنعم في قصرها بغاية الهدوء والنعيم، وقد نزل الأمين جبريل – خصيصًا

– ذات يوم حاملاً رسالة عاجلة وسلامًا مُخَصَصًا من الله رب العالمين إلى إلى السيد الجليلة . فما أكرمها وأكرم منزلتها

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال :
أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ؛ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا – وَمِنِّي -، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لا صَخَبَ فِيهِ ولا نَصَبَ [انظر : البخاري: 3536]

وهكذا أرسل الله لها التحية والبشارة، محمولتنا من أمين السماء" جبريل"، مدفوعتان إلى أمين الأرض " محمد "، ليقوم بدوره بتليغ التحية الكريمة والبشارة الكريمة، من كريم عن كريم عن كريم إلى سيدة نساء العالمين " خديجة " .

وتوفيت – رضي الله عنها- في رمضان من العام العاشر من البعثة، ودفنت بمدافن مكة عند جبل الحجون، عن خمس وستين سنة [انظر : الذهبي : سير أعلام النبلاء 112/2].

فماتت ولم تر في الدنيا لقاء ما قدمته، فلم تفرح بغنيمة، ولم تر دولة المسلمين، بيد أن الأجر العظيم الذي لا ينقطع فضله قد أخره الله لها، فليس بمقدور ملوك الأرض جميعًا أن يوفوا لها أجر صنيعها، إنما الجدير بذلك ربها الذي خلقها وهو ملك والملوك . فجزاك الله عنا يا أماه خيرًا .

***

وفاء بلا حدود

وكان رسول الله يحن إليها، ويذكرها دومًا، فلا يزال يذكر فضائلها حتى تغار إحدى زوجاته، وكان يكرم صويحبات خديجة، فإذا ذبح أو طبخ أهدى إليهن، إكرامًا لها. وهي في قبرها !
وإذا ذكرَها ذاكرُها في حضرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا به – صلى الله عليه وسلم – يرق لها، ويذكرها، ويستغفر لها، ويذكر فضائلها حتى يأتيه عارضٌ يقطع عليه حديثة، وضجرة – كضجرة عائشة – تحوْلُ بغيرتها بين رسول الله وبين الحديث عن خديجة، بيد أن العكس يحصل، فإذا غارت عائشة ونالت من خديجة كما تنال المرأة من ضرتها فقالت: " عجوزٌ ! قد أبدلك الله بخير منها "، زادت الطينة بلة، فيزيد رسول الله في

ذكرها ويكثر من الحديث عن فضلها أكثر وأكثر ، ويستمر الحال حتى تأتيه عادية أو صارفة تقطع الحديث عن فضل خديجة !

***

ويوم بدر [في رمضان 2 هـ]، جاءت كل عشيرة تفتدي أسرها من نُيوب المسلمين، وكان أبو الْعَاصِ بْنِ الرّبِيعِ - زوج زينب – بين الأسارى، وكان الإسلام قد فرق بينه وبين بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، وأرادت زينب – الوفية بنت الوفية – أن تنقذ زوجها من الأسر، علها تَرد له يدًا من أياديه البيضاء، أو يشرح الله صدره للإسلام .

وبينا الناسُ يتوافدون على النبي – صلى الله عليه وسلم – كلٌ يدفع الفداء لقاء قبض أسيره؛ إذ بعثت زينب بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم - في فداء أبي العاص بمالٍ وبعثت فيه بقلادة لخديجة، كانت أَدخلتها بها على أبي العاص .

وجيء بالمال والقلادة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ، لإطلاق أبي العاص، فلما وقعت عينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على قلادة خديجة، رَقّ لَهَا رِقّةً شَدِيدَةً، وَقَالَ – يستسمح أصحابه - :
" إنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا ، وَتَرُدّوا عَلَيْهَا مَالَهَا ، فَافْعَلُوا " فَقَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللّهِ . ففعلوا [ابن هشام 652/1 (بتصرف)]

لقد أثارت قلادة خديجة في نفس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذكريات، فكأنما هب إليه من إطار هذه القلادة أريجًا تنفسته خديجة، فحرك القلب الرحيم، بعدما كاد أن يقر بعد رحيل الحبيبة الكريمة، تلك المرأة التي حار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في فضلها .
رق لها . ولما لا ؟ فهي قلادة لامست يومًا نَفسَ خديجة التي أعطته كل شيء نفسها وجهدها ومالها وبيتها، وتركت له كل شيىء، ولم تمتن عليه بشيء .

ورق لها، رقة شديدة، فأوشك أن يرسل عَبرة حارة من عينيه الكريمتين، بيد أن العَبرة لم تسيل على الخد إنما سالت إلى القلب، فأحس الناظرون بحرارتها في رقته الشديدة هذه . وأشفقوا عليه . وشرع يستنزل فيهم الكرم، ويستسمح أصحابه – وهو الكريم الأكرم – أن يطلقوا لزينب أسيرها . . ثم

إنه في أدب جم وخلق سَجْح، يُخيرهم في ذلك ويكل إليهم القرار، ولو شاء أمرهم، فقال : " إنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا ، وَتَرُدّوا عَلَيْهَا مَالَهَا ، فَافْعَلُوا " .

***

وفي يوم فتح مكة[رمضان 8هـ]، لما أراد أن يبيت، لم يذهب إلى بيت من بيوت أصحابه، وهو لو شاء لصادر أرقى بيت في مكة، ولكنه ضرب خيمته إلى جوار قبر خديجة، وكأنما لما فتح مكة؛ فتحت هي الأخرى قلبه، فنكئت فيه ذكريات خديجة الغائرةَ، وكأنما جاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إليها على قدم وساق، قد اختلطت في قبله عَبرة الفراق وفرحة الفتح، ولسان حال المقام يقول : صدقت يا خديجة : " لا يخزيك الله أبدً " .

***

توصيات:

يا أم القاسم ! رضي الله عنك !

أصبحت مَعلمةَ العفة لبنات المسلمين، ومَعلمةَ الوفاء لزوجات المسلمين، ومَعلَمة الصبر لداعيات المسلمين ، بل أنت سيدة الحكمة لحكماء المسلمين . فعيشوا – إخواني وأخواتي - في ظلال سيرة أُمنا بين العفة والوفاء والصبر والحكمة .

***

وأما أحوج الدعوة الإسلامية إلى أمثال خديجة ! فنحن في أمس الحاجة إلى "خديجات " ينفقن على الدعوة، ويبذلن للدعوة، ويصبرن في سبيل الله، ويسكبن الإيمان والثقة والفرح في قلوب إزواجهن سكبًا. ويبَلِغْنَ دعوة الله إلى السَّانح والبَارح والنَّاطح والقعيد . فإلى هذا المعين ، معين أم المؤمنين، فارتشفن، يا فتيات المسلمين . وإياكن، و السُّفولية الخارجة، والمَثالب الفاضحة، والتبرج المحرم، والعُري المُجرَّم، والخضوع بالقول والتغنج، والتساهل مع الرجال والتهتك .. إياكن والكَذِب المُبرِّح، والخُلْفَ المُصَرّح، والغيبة والنميمة، وإضاعة الوقت والمال، على الكماليات والتفاهات .. إياكن والانشغال بوسائل الإعلام، من مسلسلات وأفلام – تُركية وغير تُركية ! - تحض على الفُحش والرذيلة، والجَهالة المُفْرطة، والرِّكاكة المُسْتَخِفّة، والزنا والخَنا ، والسطحية والسذاجة، والميوعة والخلاعة.

ولا تتأثرن – أبدًا – بأي امرأة متبرجة، تلك التي تتعرى للعيون الجائعة، كالبقلة الحمقاء، الذاوية في أرض نشَّاشة أو النابتة في بِركةٍ من بِرك الصرف الصحي .. لا تعجبن بها، فالشيطان يجملها في عين الرجل ليُفتن، ويزينها في عين المرأة لتفسد، هي حسنة في عين الشيطان وحسنة في عين الخبلان، وحسنة عند الذئب البشري والعقربان.. والقَرَنْبَى في عين أمِّها حسنة !
بل أنتِ. أنتِ – أيتها المؤمنة - جميلة الجميلات ومليحة الحسناوات!

غزوة بدر الكبرى .. وعلاقة القائد بجنده
[الجمعة 17 رمضان 2هـ/13مارس624م]

ستظل معركة بدر الكبرى مَعلَمًا عريقًا، و دستورًا منيرًا للدعاة والمصلحين والمجاهدين في معاركهم مع الباطل، ستظل الدرس الأكبر في انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ..
كما ستبقى مرجعًا مهمة لتجلية العلاقة بين القائد وجنده، والأمير وجيشه، دروسًا في الجندية والطاعة، والوحدة والتنظيم والجماعة ..
والحق أن مسألة " العلاقة بين القائد وجنده " ..تحتاج دومًا للتأصيل والتوضيح، والتبيين والتمثيل، فهل يتبسط القائد مع جنده إلى حد المجون ؟ وهل يتشدد القائد مع جنده إلى حد الغرور ؟ ما هي يا ترى طبيعة العلاقة بين القائد وجنده من الناحية الإنسانية ومن الناحية العسكرية ومن الناحية السياسية ؟ ..
إن إجابة هذا السؤال، في مدارسة هذه الغزوة الفضيلة ..والوقوف على مواقفها الحكيمة، وقبل الإجابة؛ علينا أن نعرض لموجزها، قبل الولوج في مواقفها .
وسبب هذه الغزوة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - سمع بقافلة تجارية لقريش قادمة من الشام بإشراف أبى سفيان بن حرب، وتتكون من ألف بعير محملة بالبضائع، يحرسها أربعون رجلاً فقط، فندب المسلمين إليها، ليأخذوها لقاء ما صادر المشركون من أموال وعقارات المسلمين في مكة. فخف بعضهم لذلك وتثاقل آخرون،إذ لم يكونوا يتصورون قتالاً فى ذلك.
وتحسس أبو سفيان الأمر وهو فى طريقه الى مكة، فبلغه عزم المسلمين على خروجهم لأخذ القافلة، فأرسل الى مكة من يخبر قريشاً بالخبر ويستفزهم للخروج لإنقاذ أموالهم .

فبلغ الخبر قريشاً فتجهزوا سراعاً وخرج كل منهم قاصدين القتال ولم يتخلف من أشراف قريش أحد وكانو قريباً من ألف مقاتل .

وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى ليال مضت من شهر رمضان مع أصحابه، أما أبو سفيان فقد أتيح له أن يحرز عيره، فلما أخبر قريشًا بأن القافلة التجارية قد نجت، وأنه لا داعي للقتال، رفض أبو جهل إلا المواجهة العسكرية..

وخرجت قريش في نحو من ألف مقاتل، منهم ستمائة دارع (لابس للدرع) ومائة فرس، وسبعمائة بعير، ومعهم عدد من القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء الإسلام والمسلمين.

أما المسلمون فكانت عدتهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، من المهاجرين ثلاثة وثمانون، وباقيهم من الأنصار (61 من الأوس، و170 من الخزرج) ، وكان معهم سبعون بعيرًا، وفرسان، وكان يتعاقب النفر اليسير على الجمل الواحد فترة بعد أخرى، وقبل المعركة، استشار النبي أصحابه، وخاصة الأنصار، في خوض المعركة، فأشاروا عليه بخوض المعركة إن شاء ، وتكلموا خيرًا .. ثم سار النبي - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - إلى أرض المعركة في بدر [وهي الآن مدينة بدر، تبعد 155 كلم عن المدينة، و310 كلم عن مكة، و30 كلم عن ساحل البحر الأحمر] ، وعسكر النبي – صلى الله عليه وسلم - عند أدنى ماء من العدو نزولاً على اقتراح الحباب بن المنذر، وتمام بناء مقر القيادة كما أشار سعد بن معاذ، وقبيل المعركة، أخذ الرسول - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - يسوي صفوف الجيش ، ويحرضهم على القتال، ويرغبهم في الشهادة، ورجع إلى مقر القيادة ومعه أبو بكر، وأخذ الرسول - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - في الدعاء والابتهال إلى الله أن ينصر الإسلام ويعز المسلمين، ثم حمي القتال، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وقد قُتل منهم أربعة عشر، وقُتل من جيش المشركين سبعون، وأُسر سبعون، وافتدى المشركون أسراهم بالمال ونحوه. وأصدر النبي- صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - عفوًا عن بعض الأسرى دون أن يأخذ منهم الفداء ، نظرًا لفقرهم، وكلّف المتعلمين منهم بتعليم أطفال المسلمين القرأة والكتابة.

ونزلت سورة الأنفال تعقّب على هذه الغزوة وتستنكر على الصحابة اختلافهم على الأنفال . وتركز على سلبيات المعركة لمحاولة تلافيها في المعارك القادمة .

وبعد هذا الموجز، نقف فيما يلي على بعض مشاهد العلاقة بين القائد وجنده، لنرى موضع القائد من جنده وموضع الجند من قائدهم.

مشاركة القائد جنوده في الصعاب:

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعير، فكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : فكانت إذا جاءت عقبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالا : نحن نمشي عنك قال : " ما أنتما بأقوى مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكما " [ابن هشام 2/ 389 وحسنه الألباني في تحقيق فقه السيرة 167].

فالقائد الصالح هو من يشارك جنوده الصعاب، ويكابد معهم الآكام والشعاب، ويحفزهم على القليل والكثير من الصالحات، ليكون قدوة طيبة أخلاقية لجنوده في المنشط والمكره، وليس القائد بالذي يتخلف عن جيشه رهبًا من الموقف أو يتلذذ بصنوف النعيم الدنيوي وجنده يكابد الحر والقر. والقائد إذا ركن إلى لذة المهاد الوثير؛ حُرم لذة المشاهد والمواقف. وبعض الرجال في الحروب غثاء !

استشارة الجنود

في وداي ذَفِرَانَ [وهو يبعد عن المدينة المنورة نحو مائة كيلو متر]، وكان في هذا الوادي المجلس الاستشاري الشهير لمعركة بدر- بلغ النبي – صلى الله عليه وسلم- نجاة القافلة، وتأكد من حتمية المواجهة، فإما القتال وإما الفرار.. فاستشار، فجمع الناس ووضعهم أمام الوضع الراهن،وقال لجنوده:"أَشِيرُوا عَلَيّ أَيّهَا النّاسُ ! " .. ورددها مرارًا، وما زال يكررها عليهم، فيقوم الواحد تلو الآخر ويدلو بدلوه، فقام أبو بكر فقال وأحسن. ثم قام عمر فقال وأحسن. ثم قام الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فقال وأحسن ..حتى قام القيادي الأنصاري البارز سعد بن معاذ، فحسم نتيجة الشورى لصالح الحل العسكري، قائلًا :

" لَقَدْ آمَنّا بِك وَصَدّقْنَاك ، وَشَهِدْنَا أَنّ مَا جِئْت بِهِ هُوَ الْحَقّ ، وَأَعْطَيْنَاك عَلَى ذَلِكَ عُهُودِنَا وَمَوَاثِيقِنَا ، عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ .. فَامْضِ يَا رَسُولَ اللّهِ لِمَا أَرَدْت فَنَحْنُ مَعَك ، فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْت بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلّفَ مِنّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوّنَا غَدًا ، إنّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللّقَاءِ . لَعَلّ اللّهَ يُرِيك مِنّا مَا تَقُرّ بِهِ عَيْنُك ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللّهِ "[السهيلي 3 / 57]

فهذا هو المجتمع الإسلامي، الذي يعتبر الشورى ركنًا من أركانه، وأصلاً في بنيانه.. في أيام كانت أوربا تحت حكم وراثي، كنسي مستبد خرافي، يُقيدُ فيه الجنود بالسلاسل – في المعارك – حتى لا يفروا. لا قيمة عندهم لرأي، ولا وزن - في تصوراتهم – لفكر.

وصدق حافظ إبراهيم – رحمه الله – حين قال:
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به **** رغم الخلاف و رأي الفرد يشقيها

إن الشورى، من فرائض شرعتنا، ومن مفاخر دعوتنا، ومن معالم حضارتنا، ومن يعمل على تنحيتها، وهدمها وعزلها، أو الالتفاف حولها، فإنما يهدم الفرض، ويفسد في الأرض، ويُمكنُ لذلك للغرب، ويُحارب بذلك الرب .
وليعلم المتبصر، أن الشورى مُعلمةٌ للإمام الصالح غير مُلزمة، وهذا في شأن الحُكم والدولة. كذلك بالنسبة للقائد العسكري في ساح الوغي، فالقتال دائر والقلب حائر ، بيد أن الشورى في العمل الجماعي الدعوي أو التوعوي أو الخيري مُلزمة، نعم مُلزمة، إذ يجب على قائد العمل الدعوي ومسؤول النشاط التوعوي أن ينزل على رأي إخوانه في الدعوة، وأتباعه في الحركة، ولا يجوز له - ولا يليق به - أن يُلزم الآخرين برأيه الذي لم يُجمع عليه، ولم تتفق الآراء حوله . وخاب من أصدر قرارًا – في غير نص - بغير شورى، وبئس القائد الذي قرّب الغاش وأقصى الناصح .

فإذا عزمتَ، وجمعت فريقك على مائدة الشورى، فاصدق الله في قصدك، وأسأله أن يصفي ذهنك، وأن ينقح فكرك، وأن يثقف عقلك، وأن يهذب خُلقك، وأن يهديك إلى خير الأفكار، وخير الأحوال، وخير الحلول، وأن يكفيك الشواغل العارضة، والقوى المتقسمة، والمصائب الباغتة، واستعذ به من استوحاش الفكرة، وجمود العقل، وصعوبة الحسم، وضعف العزم .
وعلى مائدة الشورى، إياك والجلوس رئاء الناس، واحذر السُّمعة، وحب الشهرة، والنَّفج والاستطالة، والتكبر على إخوانك والمغالبة، والغرور بالرأي والمجاذبة، وعليك على ذلك بالمجاهدة، والانبتات إلى الله والمسارعة، وإياك وقولة : قد قلتُ لكم رأي، ونصحتُ لكم، فخالفتموني فحفتم وفشلتم، فذوقوا وبال أمركم !!! فما تمخضت عنه الشورى خير، هو من اختيار الله، ومن اختلف في الفروع لم يُؤثَّم، ومن اختلف في الأصول – لا شك - يُحَوَّب . والرجل الحائر البائر المقبوح المشقوح، هو الذي يشير على أهل الرأي ! ولا يقبل منهم رأي، فدومًا يرى أن رأيه هو الرأي، وما عداه فساد محض!

الثقة في القيادة.. (امض لما أمرك الله !)

وتأمل القولة التاريخية لسعد بن معاذ ، والتي قال فيها :
" فَامْضِ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَا أَرَدْت فَنَحْنُ مَعَك ، فَوَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْت بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَه لَخُضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوّنَا غَدًا ، إنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ . لَعَلّ اللهَ يُرِيك مِنَّا مَا تَقُرّ بِهِ عَيْنُك ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ "[السهيلي 3 / 57] ..
فامض يا رسول الله لما أردتَ، فنحن معك ...
فسر بنا على بركة الله ..
إنها ثقة الجندي في قائده، وثقة الأخ في نقيبه، والثقة الحقة، هي "اطمئنان الجندي إلى القائد في كفاءته وإخلاصه .. اطمئنانًا عميقًا؛ يُنتج الحب والتقدير والاحترام والطاعة" [مجموعة الرسائل 283]..
قال الله تعالى في شأن الشاكين في كفاءة القيادة الإسلامية وإخلاصها :
"أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " [النور:50] .

فإذا انتشر الشك في صفوف الجماعة؛ انتشر على إثر ذلك الخوار والتصدع في بنيان الدعوة، فقوة التنظيمات تكون على قدر الثقة بين القائد وجنده، ومتانة الجماعات مرتبطة بمتانة الثقة بين النقيب وإخوانه، والثقة المتبادلة بين القائد وجنده هي الوِجاء الواقي في الخطط الدعوية، والأعمال التنظيمية، وتحقيق الأهداف الكبرى والمرحلية .
إن الجماعة المؤمنة هي تلك الجماعة التي لاتسمح ولاتمكّن لأعدائها أن يشقوا غبار أخوتها بالوشاية، ولا أن يصدّعوا وحدتها بالدعاية.
والمؤمن الصادق لا يشك في أخيه، ولا يشكك في نزاهته وأمانته، وإخلاصه وكفائته، فإذا تسلل الشيطان إلى النفس بنفث الشك في كفاءة القائد، تابت النفس المؤمنة، وقالت كما قال الله :
"لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ " [النور12].
فلا إيمان لنا حتى نُحّكم الشرع فيما شجر بيننا، ولا نجد في أنفسنا حرجًا مما قضى الله ورسوله وأولو الأمر من المؤمنين، أو ما تمخضت عنه مجالس شورى المتقين، ونسلم بذلك تسليما،و نقول بالقلب واللسان : سمعنا وأطعنا .
"فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً " [النساء:65].

ومن تمام التسليم، أن يكون لدى المؤمن الاستعداد التام، لأن يفترض في رأيه الخطأ وفي رأي القيادة الصواب، وهذا في حدود الخلاف السائغ، حيث لا خلاف أصلاً – بين القائد وجنده - مع وجود النص.

تبشير الجنود وبث الثقة فيهم

سُرّ رَسُولُ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشّطَهُ ذَلِكَ ثُمّ قَالَ : "سِيرُوا وَأَبْشِرُوا ، فَإِنّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إحْدَى الطّائِفَتَيْنِ ! وَاَللهِ لَكَأَنّي الآن أَنْظُرُ إلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ !!"[السهيلي 3 / 57]

وفي اليوم السابق ليوم بدر مشى - صلى الله عليه و سلم - في أرض المعركة وجعل يُري جنوده مصارع رؤوس المشركين واحدًا واحدًا .

وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ: هَذَا مَصْرَعُ فلان- ووضع يده بالأرض - ، وَهَذَا مَصْرَعُ فلان، وَهَذَا مَصْرَعُ فلان - إنْ شَاءَ اللهُ –، فَمَا تَعَدّى أَحَد مِنْهُمْ مَوْضِعَ إشَارَتِهِ [ابن القيم : زاد المعاد 3 / 15]. فَعَلِمَ الْقَوْمُ أَنّهُمْ يلاقُونَ الْقِتَالَ، وَأَنّ الْعِيرَ تُفْلِتُ وَرَجَوْا النّصْرَ لِقَوْلِ النّبِيّ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ [الواقدي 49]

قال أنس: "ويضع يده على الأرض هاهنا هاهنا. فما ماطَ أحدهم عن موضع يد رسول الله"[البيهقي : دلائل النبوة (21)]

وقال عمر : " فوالذي بعثه بالحق ! ما أخطؤوا الحدود التي حد رسول الله "[مسلم(2873)] .

وقوله - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - لعقبة بن أبي معيط – المجرم المعروف -: "إن وجدتك خارج جبال مكة قتلتك صبرا" [الصالحي 4 / 18]، فحقق الله تعالى ذلك .

وأخبر بقتل المسلمين لأمية بن خلف، ولذلك قال سعد بن معاذ لأمية عندما ذهب إلى مكة قبيل بدر : يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله يقول: "إنهم قاتلوك" ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً [البيهقي : دلائل النبوة : 21].

ما أعظم القائد الصامد المبشر ! وما أكرمه هو يبث روح الثقة في جنده، وينشر روح التفائل في جيشه، ويصب جوامع الكلم الطيب في القلوب، كالمطر الهاطل على السيول، فيذكرهم بشارة الله لعباده، وجنة الله لأوليائه، والمجاهدون أعظم الأولياء، رفقاء الرسل والأنبياء !

فإذا بالجنود – على أثر تثبيت قائدهم - ؛ قد ثبت الله أقدامهم، وربط الله على قلوبهم، وسدد الله رميتهم، وأثقل بأسهم، وجعل الدائرة لهم.

احترام آراء الخبراء والجنود :

فقد قال عبد الله بن رواحة – في موقف من مواقف بدر - : " يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك"[الطبراني في الكبير 4 / 210] فأنصت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لقول ابن رواحة وقال له قولاً حسنًا ..

ولما تحرك رسول الله إلى موقع ماء بدر، في موقع المعركة، نزل بالجيش عند أدنى بئر من آبار بدر من الجيش الإسلامي، وهنا قام الْحُبَاب بْنَ الْمُنْذِرِ وأشار على النبي بموقع آخر أفضل من هذا الموقع قائلًا :

يَا رَسُولَ اللهِ ! أَرَأَيْت هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزِلاً أَنْزَلَكَهُ اللهُ، لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدّمَهُ ولا نَتَأَخّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ قَالَ : " بَلْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ" .. فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنّاسِ حَتّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ ، فَنَنْزِلَهُ ثُمّ نُغَوّرَ [أي ندفن] مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ، ثُمّ نَبْنِيَ عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَؤُهُ مَاءً، ثُمّ نُقَاتِلَ الْقَوْمَ، فَنَشْرَبَ وَلَا يَشْرَبُونَ..

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ – مشجعًا - :" لَقَدْ أَشَرْت بِالرّأْيِ".

وبادر النبي – صلى الله عليه وسلم - بتنفيذ ما أشار به الحباب، ولم يستبد برأيه برغم أنه القائد الأعلى، وعليه ينزل الوحي من السماء، فَنَهَضَ رَسُولُ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - وَمَنْ مَعَهُ مِنْ النّاسِ فَسَارَ حَتّى إذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ، نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمّ أَمَرَ بالآبار فخُربت، وَبَنَى حَوْضًا عَلَى الْبئر الّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمُلِئَ مَاءً، ثُمّ قَذَفُوا فِيهِ الْآنِيَةَ [ابن هشام - 1 / 620].

إن هذه المواقف لتبين كيف تكون العلاقة بين القائد وجنوده، إنها علاقة تحترم الآراء الناضجة وتشجع الأفكار الصاعدة، وتتبنى الابتكارات، وتحفز الاختراعات..

أيها القائد ، أيها المسؤول، لن تعدم في جنودك من فاقك في العلم، وراقك في الفهم، فامتلِكْ عقول الجميع - في عقلك -، بالشورى، فأنت بغير الشورى عقل واحد، وبالشورى عقول ! وإذا احترمتَ عقلاً ملكته، وإذا وقّرتَ خبيرًا ظفرته، وإذا عرفتَ شرفَ الحاذقِ كان سهمًا في كنانتك، وخنجرًا في جعبتك .

حماية القائد و تأمين مقر القيادة:

فقد قال القائد الإسلامي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ – مبينًا أهمية تأمين سلامة القائد والقيادة- : " يَا نَبِيّ اللهِ، أَلا نَبْنِي لَك عَرِيشًا [من جريد] تَكُونُ فِيهِ نُعِدّ عِنْدَك رَكَائِبَك [أو رواحلك]، ثُمّ نَلْقَى عَدُوّنَا ، فَإِنْ أَعَزّنَا اللهُ وَأَظْهَرَنَا عَلَى عَدُوّنَا، كَانَ ذَلِكَ مَا أَحْبَبْنَا ، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى ، جَلَسَتْ عَلَى رَكَائِبِك ، فَلَحِقَتْ بِمَنْ

وَرَاءَنَا ، فَقَدْ تَخَلّفَ عَنْك أَقْوَامٌ - يَا نَبِيّ اللهِ - مَا نَحْنُ بِأَشَدّ لَك حُبّا مِنْهُمْ ! وَلَوْ ظَنّوا أَنّك تَلْقَى حَرْبًا مَا تَخَلّفُوا عَنْك ، يَمْنَعُك اللهُ بِهِمْ يُنَاصِحُونَكَ وَيُجَاهِدُونَ مَعَك"[السهيلي 3 / 63] .
فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ .
وقال مبشرًا : "أو يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد!" [الواقدي 17/1]
ثُمّ بُنِيَ لِرَسُولِ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - عَرِيشًا على تل مرتفع يشرف على ساحة القتال استجابة لمطلب سعد – رضي الله عنه - .
وكان فيه أبو بكر، ما معهما غيرهما [ابن الأثير: أسد الغابة 2 / 143] .
كما تم انتخاب فرقة من جنود الأنصار بقيادة سعد بن معاذ لحراسة مقر قيادة حضرة النبي- صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ [انظر: ابن هشام 233/2].

لا خير في جنود لا يهتمون بسلامة قائدهم، ومقر قيادتهم، لا خير فيهم إلا لم يتهالكوا في حفظه و يتضامنوا في حمايته، بترسيخ الحواجز والموانع التي تحول بين العدو والقيادة الإسلامية، فإذا خلص العدو إلى مقر القيادة، ملك العدو زمام المعركة، وقيل : من انهزم، قالوا : من لا قائد لهم .

حُسن الظن بالإخوان
وذلك في قول سعد بن معاذ للنبي - صلى الله عليه وسلم - عندما اقترح عليه فكرة العريش ، قال سعد - في رواية - :
إنّا قَدْ خَلّفْنَا مِنْ قَوْمِنَا قَوْمًا مَا نَحْنُ بِأَشَدّ حُبّا لَك مِنْهُمْ . وَلا أَطْوَعَ لَك مِنْهُمْ، لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي الْجِهَادِ وَنِيّةٌ، وَلَوْ ظَنّوا - يَا رَسُولَ اللهِ أَنّك - مُلاقٍ عَدُوّا مَا تَخَلّفُوا ، وَلَكِنْ إنّمَا ظَنّوا أَنّهَا الْعِيرُ [الواقدي 49/1].

وهكذا الإخوان في الله، في ميادين المجتمع إخوانٌ، في ميادين الدعوة إخوانٌ، في ميادين الجهاد إخوانٌ، عظماء أخلاق، أحاسن خلال، أكارم شيم، أفاضل قيم .. إخوانٌ لا مكان للظَّنة بينهم، ولا وجود للتُّهمة بينهم، يُحسنون الظن بأنفسهم، أي بإخوانهم، فالأخ بمنزلة الإنسان من نفسه، والجسم من روحه . وإن بعض الظن إثم – أي في غالب الناس- ، أما بين الإخوان فكله إثم !

عدل وتنظيم وطاعة
قلما نرى في تاريخ الحروب صورة تعبر عن العدل بيت القادة والجنود، فالتاريخ الإنساني حافل بصور استبداد القادة العسكريين وظلمهم للجنود..

أما محمد صلى الله عليه وسلم فنراه في أرض المعركة يقف أمام جندي من جنوده لَيَقتص الجندي منه.. أما الجندي فهو سَوَادِ بْنِ غَزِيّةَ، لما اسْتَنْتِل من الصف، غمزه النبي – صلى الله عليه وسلم - غمزة خفيفة في بَطْنِهِ - بالسهم الذي لا نصل له - وقال: "اسْتَوِ يَا سَوّادُ!".. قال: يا رسول الله! أوجعتني !وقد بعثك الله بالحق والعدل؛ فَأَقِدْنِي !فكشف رسول اللهِ - صلى الله عليه وسلم- عَنْ بَطْنِهِ، وَقَالَ: "اسْتَقِدْ .."فَاعْتَنَقَهُ فَقَبّلَ بَطْنَهُ !فَقَالَ النبي- صلى الله عليه وسلم-: "مَا حَمَلَك عَلَى هَذَا يَا سَوّادُ؟"، قال: حضر ما ترى، فَأَرَدْتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك! فدعا له رسول الله بخير [ابن هشام 1 / 626].

وفي هذا الموقف؛ نرى – أيضًا – عظَمَ أهمية التنظيم، وتنسيق الصفوف، وتقسيم الكتائب، وتأمير الأمراء، فلا نجاح لتنظيم دون تنظيم، ولا فلاح لجماعة فوضوية !
"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ " [الصف :4]

وفي هذا الموقف، نرى – أيضًا – أهمية الطاعة، والالتزام بتعليمات القادة، وتنبيهات أولي الأمر من المسلمين، فلا قيادة إلا بطاعة، ولا بيعة إلا بطاعة، ولا قوام لجيش لا يطيع أميره، ويعصي الله ورسوله ، فعن أبي هريرة، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي " [البخاري : 6604].

دعاء القائد لجنده :
لما عَدّلَ رَسُولُ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - الصّفُوفَ وَرَجَعَ إلَى مقر القيادة، فَدَخَلَهُ وَمَعَهُ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ ، لَيْسَ مَعَهُ فِيهِ غَيْرُهُ، إذا بَرَسُولُ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - يُنَاشِدُ رَبّهُ مَا وَعَدَهُ مِنْ النّصْرِ وَيَقُولُ فِيمَا يَقُولُ : " اللّهُمّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي .. اللّهُمّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي.. اللّهُمّ إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإسلام لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ!!"[مسلم (3309)]..
وبالغ في الابتهال، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ : "يَا نَبِيّ اللّهِ ! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبّكَ، فَإِنّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ"

... ثُمّ انْتَبَهَ فَقَالَ " أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ ! أَتَاك نَصْرُ اللهِ ! هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعَنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ، عَلَى ثَنَايَاهُ النّقْعُ" [السهيلي 3 / 68]

وكان من دعاء النبي- صلى الله عليه وسلم - ما ذكره علي بن أبي طالب، حيث قال: "لما كان يوم بدر قاتلتُ شيئًا من قتال، ثم جئتُ مسرعًا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -لأنظر ما فعل، فإذا هو ساجد يقول: " يا حي يا قيوم "، لا يزيد عليهما، ثم رجعت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال.ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك. " [الصالحي 4 / 37].
و نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين وتكاثرهم وإلى المسلمين فاستقلهم، فركع ركعتين، وقام أبو بكر عن يمينه، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في صلاته: " اللهم لا تودع مني، اللهم لا تخذلني، اللهم أنشدك ما وعدتني "[الصالحي 4 / 38]
وكان من دعائه كذلك لجنوده : " اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم " [أبو داود:(2747)، وحسنه الألباني]. قال عبد الله بن عمرو : ففتح الله له يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا.

فالقائد كالأب يحنو على أولاده، كالظليم يظلل على أفراخه، يرفع يديه ضارعًا، خاشعًا، داعيًا، بأدعية خاشعة تستنزل لجند الله الرحمات والبركات . يستغفر لهم، يصلي عليهم، يدعو لهم، فالقائد ليس كالترس القائد – في صندوق التروس - لا حس فيه ولا حراك، ولا شعور فيه ولا إحساس، يقود تروسه بشكل ميكانيكي جامد جاف، بل القائد روح بين جنوده تحييهم، ورباط وثيق يجمعهم، وهو القلب الكبير وهم أعضائه، وهو الأصل الأصيل وهم فروعه وأفنانه، وهو أرحم الناس بهم ."وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ " [التوبة :103].
وأخيرًا ..
العلاقة بين القائد وجنده، والنقيب وإخوانه، علاقةٌ أساسها الإيمان، وعمادها الإخوة، وأركانها الشورى والطاعة والمشاركة والثقة.

فَتْحُ مَكَّةَ .. فتوحات، وفتحٌ لكل زمان
[22 رمضان 8 هـ يناير 630 م]

فتح مكة .. دروس متجددة

هذا الفتح الرباني الرمضاني الذي حدث في شهر يناير عام 630 م، أشبه بنبع فياض، نرتشف منه زلالاً، ودروسًا وعبرًا، متجددة بتجدد الليل والنهار، مستمرة دائرة في دورة الفَلك، شأنها شأن السيرة النبوية كلها، كلما طوى الزمان صفحة من أيامه؛ انبرت السيرة في حلة جديدة، وفي ثوب قشيب، وانبرى لها باحثون وعلماء يستخرجون ما ضمته السيرة في أحشائها من جواهر ولألاء . ولكل زمان حظه منها.

.... إليك – أخي القارىء – هذه الدروس المستفادة من هذا الفتح الفضيل.

وعسى أن تكرهوا شيئًا ...!

والسبب التاريخي لفتح مكة؛ أن هدنة الحديبية، فتحت الباب لكل قبيلة أن تدخل في عقد من شاءت من أطراف الهدنة، فارتضت خزاعة أن تدخل في عقد المسلمين – نظرًا للعلاقات القديمة بين خزاعة وبني هاشم -، وارتضت بنو بكر أن تدخل في حلف قريش، وحدث على أثر ذلك، أن اعتدت بنو بكر على خزاعة، فقُتل من خزاعة عشرون رجلاً على الأقل، ومما زاد الطينة بلة، أن قريشًا أمدت بني بكر برجال وسلاح في هذه المذبحة الشنعاء، ونقضت بذلك معاهدة الحديبية نقضة صلعاء، وشارك في ذلك الصناديد والوجهاء، وأرسلت خزاعة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم – تخبره الفعلة، وتسأله النصرة، وهو إمام الحق والعدل والمنعة، ما خاب من لاذ بجنابه، وهو لم يَخذل من سأل جواره، فسار إمام المجاهدين إلى المشركين، فكان هذا الفتح المبين، ليكون الدرس : "فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً " [النساء:19].

الانهزام النفسي للقيادة الوثينة .. أول الفتح :

وخرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى مكة - لعشر مضين من رمضان، وكان عددهم حين خروجهم من المدينة عشرة آلاف، ثم انضم إليهم في الطريق عدد من قبائل العرب، ودب الرعب في نفس أبي سفيان قائد المشركين، فخرج مع العباس بن عبد المطلب عم النبي – صلى الله عليه وسلم – قاصدًا رسول الله ليحصل منه على أمان، وفي (مر الظهران) عثر حرس رسول الله – صلى الله عليه وسلم - على أبي سفيان مع العباس، فأراد عمر بن الخطاب أن يقتل أبا سفيان، فأجار العباس أبا سفيان عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، وأسلم أبو سفيان، وشاهد كتائب الجيش الإسلامي، كتيبة تلو الأخرى، ففزع فزعًا شديدً، وخرج من عند النبي إلى

مكـة، يـدعوهم إلـى الإستسـلام، وأخـذ ينفـث فـيهم أنهـم لا طاقـة لهـم بقـوة المسلمين، فقد جَمع لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم – جمعًا عظيمًا، وجيشًـا كبيـرًا ..فهَـزمَ أبـو سـفيان قومـه، وانهزمـوا نفسـيًا، قبـل أن يـدخل المسلمون مكة، وهذا فتح من فتوحات مكة .

العودة إلَى مَعَاد

وواصـل الجيش الإسـلامي زحفـه، يجـوب الفيـافي والقفـار مـن المدينـة إلـى مكـة، تعلـو الجـيش هيبـة وعـزة، يبـث الرعـب فـي قلـوب الأجـلاف، وينشـر النور والحضارة يمنة ويسرة ..

ودخل رسول الله، وصدَق الله وعده :"إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَـى مَعَـادٍ قُـل رَّبِّـي أَعْلَـمُ مَـن جَـاء بِالْهُـدَى وَمَـنْ هُـوَ فِـي ضَـلَالٍ مُّبِـينٍ " [القصص:85] .

ودخلها .. الذي خرج منها طريدًا أسيفًا ..

ها هو اليوم يدخلها فاتحًا عزيزًا .. ها هو اليوم يدخلها وهو راكب راحلتـه، عليه الخشوع والتواضع، قد تلفع واعتم برداء متواضع، وأحنى ظهره علـى راحلته - تواضعًا لربه-، وطأطأ رأسه فكانت لحيته الكريمة تمس راحلتـه أحيانًا - تواضعًا لربه -، ولم ينطق لسان بكلمة فخر أو كبر بكل كان ترداده القرآن، وأنشودة الفتح؛ هي سورة الفتح .. كل ذلك تواضعًا لله، ولم يدخلها دخول الجبارين، ولم يفعل فيها فعل الملوك المغرورين. ولو شاء لجعلها خرابًا يبابًا، واسْحَنفَرَ في التكنيل ولم يتلبث !

وهذا التواضع، والخشوع، هو متعة الفاتحين الربانيين، ولذة المجاهدين الصادقين .

إعلان الأمان

حتي إذا وصل الجيش الإسلامي مكة، فأعلن منادي الرسول-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: من دخل دار أبي سفيان وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن..

وانتشر الأمان في أصقاع مكة، التي عاشت رزحًا من الزمان؛ يُنكل فيها بالمؤمنين، وتُجلد فيها ظهور الموحدين، ولا يسكن فيها روع المستضعفين . جاء اليوم الذي أمِنَ فيها المسلمون . وذهب الروع، وتبدد الخوف، وانقشع الظلم، فكان المسلم فيه هو السيد الموقَرُ، والظالمين هم " المحظورون " .

فلما دب الأمان في أرض مكة؛ دب على أثره الإسلامُ في نفوس الناس، دبيب الصهباء في عروق العشاق.

وطفق الناس يدخلون في دين الله أفوجًا..
وهذا فتح من فتح ...

الأمان لا يشمل أئمة الطغيان

ولما أصدر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – العفو العام؛ استثنى – كأي شرعة ونظام– مجرمي الحرب، وممن ارتكبوا جرائم في حق المسلمين، وأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقتل هؤلاء المجرمين، - وأكد على ذلك – ولو تعلقوا بأستار الكعبة، لظلمهم التليد، وبغيهم الشديد.

وحتى لا يطمع بعض الوجهاء - ممن لهم سجل حافل بالظلم والفساد - في حَيْفٍ؛ لشرفهم وريشهم ومالهم، فلا يزالون بالقيادة الإسلامية حتى تصبح رَؤومة لهم، عميلة عندهم. ولكن، كلا، وحاشا، فما رَئمَتْ قيادتُنا الإسلامية لظالم وما ذلت لفاسد. والله أكبر ولله الحمد .

وكان من هؤلاء المجرمين، هبار بن الأسود، ذلك اللئيم الذي عرض لزينب بنت النبي – صلى الله عليه وسلم – وهي مهاجرة، فأسقطها من فوق راحلتها، وكانت حُبلى، فأُجهضت، وسال دم سقطها .

فالأمان العام رحمة من رحمات سيد المرسلين، وقتل أمثال المجرمين – ممن استثناهم من العفو – رحمة للعالمين. وهذا فتح من فتح؛ أن يسقط الطغيان، ويأمن اللهفان.

إسقاط الأصنام ..

ودخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المسجد الحرام، والناس شهود ينظرونه وكأنه على رؤسهم الطير، ذلك المسجد الذي كان تحت سلطان الوثنيين، ولقد منعوا الرسول – صلى الله عليه وسلم - من عبادة ربه وممارسة دعوته فيه، ذلك المسجد الذي داس فيه عقبة بن أبي معيط على رأس رسول الله وهو ساجد، وحاول خنقه فيه وهو قائم، وجاء عقبة بأمعاء حيوان ميت فطرحه على ظهر رسول الله ورأسه وكتفه، فلا زالوا يضحكون حتى تمايلوا في سكرتهم ..

الآن يدخل المسجد ظاهرًا، وهم خائفون واجمون، قد ورمت أنوفهم أو خضعت قلوبهم، يطلبون العفو الصريح، أو الخُلق السَّجيح.. يخشون أن تُبسلَ نُفُوسُهم بما صنعوا بالمسلمين أيام الإضطهاد.

وهنا سقطت الأصنام السياسية .. عقدية وفكرية وثقافية ..

فأسقط رسول الله نعرات الجاهلية وأصنام الجاهلية، أسقط الوثن الصنم، وأسقط المُعتقد الصنم .. سقطت كل الأصنام على مناخرها، ولصقَ بالرَّغام

معاطسها..وطهَّرَ رسول الله – صلى عليه وسلم – المقدسات الإسلامية، طهرها تطهيرًا، وهذا فتح من فتح. فنسأل الله أن يوفقنا لتطهير المسجد الأقصى، من ركس اليهود . آمين .

وكانت البيعة فتحًا ..

واجتمع الناس حول الصفا ليبايعوا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على السمع والطاعة، فبياع الرجال ثم بايع النساء ..فبايَعهن على ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه، ولا يعصين رسول الله – صلى الله عليه وسلم - في معروف. وكانت البيعة فتحًا .

الأذان فوق الكعبة .. نَبْأة الحق :

وأمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بلالاً أن يعتلي الكعبة، وينادي على الأمة، بنداء الصلاة التالد الخالد، فدوى الأذان في سماء مكة، فقرع القلوب، وطربت به النفوس المكلومة كأنه رنة حداء، وكان بمثابة البث الإعلامي الإسلامي الممتد في كل الأنحاء، يدخل على الناس في بيوتها، والطيور في وُكُناتها، والوحوش في أوجراتها، والإبل في معاطنها، والشاء في مراتعها. وانسجم مع صوت الأذن كُل صوت، حتى قعقة البحر، وخرير النهر، وحفيف الشجر، وزفيف الريح، وتغريد الطير، وثغاء الشاة، ونقيع الضفدِع... الكل يشهد أن " محمد رسول الله " !
وهذا فتح من فتح، فقد أصبح للإسلام أبواق وحناجر، وإعلام ومنابر .

اسمعي يا مكة !

ومكث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نحو عشرين يومًا، يُعَلِّمُ الناس الخير، وينشر رسله تهدم أصنامًا عبدها الناس قرونًا..
ووقف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خطيبًا لأهل مكة يعلمهم الإسلام، وكلهم آذن صاغية، لا تحس منهم من أحد، لا تسمع ركزًا، ولا تسمع إلا همسًا، وهذا فتح من فتح، وهو الذي لما وقف إليهم من قَبلُ على جبل الصفا كذبوه وزبروه وشتموه، وقالوا : تباً لك ! ألهذا جمعتنا ؟ !
إنه يقف إليهم الآن بعدما فتح الله له بكة، يحدثهم بنور الله الذي جاء به، يهدهد رواسي الجاهلية، ويقتلع أفاعي الوثنية، فيقول في خطبة له يوم الفتح :

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ قَالَ اللَّهُ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " [الترمذي : 3193].

ويعلِّمهم تعظيم الأراضي الإسلامية، وحرمة البقاع المقدسة، وحرمة فتحها إلى قيام الساعة بعد اليوم، فإنما أحلها الله له ساعة، فقال في خطبة آخرى في هذا اليوم العظيم :
"إِنْ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، لا يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فِيهَا فَقُولُوا لَهُ : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ " [البخاري: (3957)].
وعن الدماء ومآثر الجاهلية، يقول :
"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلَا إِنَّ قَتِيلَ الْخَطَإِ قَتِيلَ السَّوْطِ وَالْعَصَا فِيهِ مِائَةٌ مِنْ الْإِبِلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ خَلِفَةً فِي بُطُونِهَا أَوْلَادُهَا . أَلَا إِنَّ كُلَّ مَأْثُرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَدَمٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سِدَانَةِ الْبَيْتِ وَسِقَايَةِ الْحَاجِّ، أَلَا إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُهُمَا لِأَهْلِهِمَا كَمَا كَانَا" [ابن ماجه: (2618)، وقال الألباني : حسن]

لكل زمان فتوحاته :
إن الله يبعث لهذه الأمة في كل زمان وفي كل مكان، من يفتح لها الفتوح، ويطبب لها الجروح، كما يبعث لها من يجدد لها دينها، ويُحيي لها شرعتها، وكلهم المعني بحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :
"إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ - عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ - مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا" [أبو داود عن أبي هريرة (3740) وحسنه الألباني].
وأحق الناس بشرف التجديد؛ من أقامهم الله لإحياء الجهاد في النفوس، ومحو الذل والعار، وتحرير الأرض والديار، وإحياء مجد الأمة، وبناء النفوس وإعلاء الهمة.
وعسى الله أن يأتي بالفتح في هذه الحقبة، ويقيد لذلك من يبيد خضراء الظَلَمة، ويسود – على أيدي المجددين الفاتحين - الأمان مكان الغربة، والنور مكان الظُلمة .

هذه الدعوة في كنف الله من أول يوم، فالفتح متجدد، والفتوحات قادمة، وقد كتب الله على نفسه ليغلبن ورسله، ويُظهرَ الدين الإسلامي على النِّحل كلها، ويستخلف في الأرض عباده المؤمنين، ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين، عندها سيبلغ مُلك هذه الأمة وسلطان هذه الدعوة ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله على هذه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين.
أيها الأسد ! لتلحقْ بقاطرة الفاتحين، وبحزب المجددين المجاهدين؛ فقد جاوزَ الماءُ الزُبى، فلا وقت للنوم ..
وبلغ الحزامُ الطُّبْيِيْن .. فالغوثَ، الغوث !
وبلغ السكين العظمَ .. فأقبل ولا تخف، الأُمة تغرق !
وانقطع السَّلى في البطن .. فلا نامت أعين الجبناء ..
وقد تجاوز الأمر بنا قدره .. فالعملَ، العمل .. والصبرَ، الصبر .. والثباتَ، الثبات، فالجهادَ، الجهاد، فهو المجد والسؤدد، والنصر الأمجد .
وما قط . بارت تجارة المجاهدين !

أخلاقيات فَتْح مَكَّةَ

كان فتح مكة، فتح أخلاق ورحمة، قلما نجد في تاريخ البشر فتحًا يضاهي فتح مكة في روعة أخلاقياته، وسمو العفو في طيات أحداثه.
فهو يوم نُصرة المظلوم، ويوم الوفاء والبر، ويوم عز مكة، ويوم التمكين .....
وقد ازدحمت في هذا اليوم ، مشاهد الأخلاق الكريمة ، وصور الخلال السجيحة، حتى تيقن الباحثُ في السيرة النبوية؛ أن محاضن التربية التي كانت في دار الأرقم، قد أتت أُكلها، وأينعت ثمارها، وانتفض حية في سلوك الصحابة يوم الفتح؛ تلك الدروس النبوية في العقيدة والأخلاق التي تربى عليها خير جيل .
فلم نسمع يوم الفتح؛ أن رجلاً مسلمًا هتك عرض امرأة، أو سرق شملة، أو هدم بيتًا، أو أفسد زرعًا، أو قتل ظلمًا، أو فزّع طفلاً . كانوا – رضي الله عنهم – مصاحف في مساليخ بشر، تتحرك تتلك المصاحف بين الشوارع والأزقة، أو يتحرك هؤلاء الرجال الربانيون بين أكناف مكة .. في حكمة، ينشرون العدل والحق ، وينتشر الإسلام بفضل أخلاقهم انتشار أشعة الشمس، أو فوحان المسك، وترى الواحد منهم – أي من هؤلاء الصحابة

الكرام يوم الفتح - كالليث في السكة، فقد فر منه المجرمون، وأمنَّ به الجالس في كسر بيته ، والثاوي في بيت ربه.

نصرة المظلوم

وأول دروس الأخلاق الجلية في يوم الفتحة ، هو درس نصرة المظلوم .
فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة – حلفاء المسلمين - ، وأعملوا فيها القتل، وخرقوا العقد؛ أرسلت خزاعة رسولاً إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باعتباره شريك عقد وأخ حلف، فخرج عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ الْخُزَاعِيّ سراعًا، يجوب الحزون ليلاً ونهارًا، حَتّى قَدِمَ المدينة، فوقف على النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يجلس حتى أخبره الخبر، فلخَّص له الأحداث في قصيدة تاريخية شهيرة، قال فيها :

يَا رَبِّ إنّي نَاشِدٌ مُحَمّدًا ... حِلْفَ أَبِينَا وَأَبِيهِ الْأَتْلَدَا
قَدْ كُنْتُمْ وُلْدًا وَكُنّا وَالِدَا ... ثُمّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا ... وَادْعُ عِبَادَ اللّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللّهِ قَدْ تَجَرّدَا ... إنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبّدَا
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدًا ... إنّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوك الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَك الْمُوَكّدَا ... وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ رُصّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا ... وَهُمْ أَذَلّ وَأَقَلّ عَدَدَا
هُمْ بَيّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجّدًا ... وَقَتَلُونَا رُكّعًا وَسُجّدَا

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :
" نُصِرْتَ يَا عَمْرَو بْنُ سَالِمٍ !!! " [ابن هشام393/2]
واستبشر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتفائل؛ فعَرَضَ لِرَسُولِ اللّهِ - صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - عَنَانٌ مِنْ السّمَاءِ، فَقَالَ :
" إنّ هَذِهِ السّحَابَةَ لَتَسْتَهِلّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ " [ابن هشام 393/2].
لقد اعتمل فؤادُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – غيظًا على هذا الظلم الصريح، فلم يقر حتى انتدب لنصرة حلفائه، والتجهز للتنكيل بأعدائه، الذين انتهكوا الحرمات، وسفكوا الدماء.
إنها نصرة المظلوم، وإغاثة المكلوم، تلك الخصلة الإسلامية الكريمة، والخلة العربية الأصيلة، وليس من المسلمين من لم يهتم بأمرهم، فيناصرهم ويذود عنهم.. وملعونٌ ذلك الذي شهد موقفًا يُظلم فيه المظلوم، وانقلب خسيئًا سلبيًا لم ينصر أخاه ببنت شفة – وهو يقدر.
وفي الأثر : لعن الله من رأى مظلوما فلم ينصره. من أُذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق .

وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :
"الْمُـؤْمِنُ لِلْمُـؤْمِنِ كَالْبُنْيَـانِ يَشُـدُّ بَعْضُـهُ بَعْضًـا [وَشَـبَّكَ بَـيْنَ أَصَـابِعِهِ]" [البخاري: 2266]
فالمؤمن لأخيه كالبنيان، يقوّيه ويمنعه من ظلم الظالمين، وبغي الباغين، وغُشم الغاشمين. وقد شبَّك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بين أصابعه، ممثلاً لتلك العلاقة التي تربط بين الإخوان وبعضهم، فهي كالأصابع المتضاغمة، كتلك الشبَكة التي لا غناء لها عن عقدة من عقدها. وقد خاب من حمل ظلمًا.
أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال الظلوم هو الملوم

نبذ الهدنة مع الخونة
والإبقاء على عهد الخائن الهَوجَل ؛ ليس من الخُلق في شيء، بل الأخْلقُ نبذ عهده، وشق موادعته، وخليق بإمام المسلمين ألا يحوْل عهد الغَدرةِ دون نصرة البررة، وحقيقٌ أن بنود صلح الحديبية تسقط فور إخلال أحد الأطراف ببند من البنود.
ولقد استند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في نصرته لخزاعة، إلى أصل أصيل، مفاده أن العدو إذا حارب من هم في جوار المسلمين أو في حلفهم أو في ذمتهم، صار العدو بذلك محاربًا لسلطان المسلمين، وبذلك يصبح المسلمون في حِلٍّ من أي اتفاقات مبرمة، أو معاهدات سابقة، وذلك لسبب وجيه : أن العدو نفسه نقَضها باعتدائه على حلفاء المسلمين، وما على إمام المسلمين عار إذا باغت العدو حينئذ في عقره، ودخل عليهم بغتة، أما إذا شك إمام المسلمين في كون العدو على العهد أو تحول إلى النقض؛ فلا يجوز للإمام في هذه الحالة مباغتة العدو، إلا بعد إعلامهم بنبذ العهد، وذلك حتى لا يُؤثر عن المسلمين الغدر، ودليل ذلك قول الله تعالى :
"وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ " [الأنفال58]

العفو عن صاحب السبق إذا ذل
فهذا حاطب، ذل، وتخابر مع العدو، فأرسل إليهم كتابًا يخبرهم فيه بمقدم جيش المسلمين، وأرسل هذا الكتاب إليهم مع " مُطربة " تجوب بين القبائل تغني، فأرسل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في إثر هذه المغنية، وتم مصادرة خطاب حاطب، ورُفع الأمر إلى حضرة النبي – صلى الله عليه

وسلم – ليفصل في هذه القضية، فدليل التخابر موجود، والمتهم مُعترف، بل قال – مبررًا - :
" يَا رَسُولَ اللَّهِ ! لا تَعْجَلْ عَلَيَّ ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ .. كُنْتُ حَلِيفًا وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا ، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي ، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ " [البخاري: (3939)]
وكانت مبررات حاطب هذه كلها، محض شَعْبذة وهراء ..
وكان حُكم رسول الله العفو !
وذلك لسبب استثنائي دامغ :
أن حاطبًا قد شهد بدرًا ، وأن الله قد تاب على حاطب، فقال لأهل بدر: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وحاشا أن يُكذب الله، وأن عملية التخابر لم تتم ولم تنجح ..
ولقد أَكلتْ هذه الفعلة الشنعاء قلبَ عمر – فأراد أن يستئذن رسول الله في قتل حاطب -فقال: " يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ" .
فَقَالَ: " إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ! وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا .. فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ !" ..
فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ :
" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ إِلَى قَوْلِهِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ "[البخاري: (3939)] .

وفي عفوه – صلى الله عليه وسلم – عن حاطب، يدل على أهمية العفو عن أصحاب السبق والفضل في الإسلام إذا ما وقعوا في خطيئة أو ذلت أقدامهم في مصيبة ..

وفي هذا الموقف – أيضًا - دلالة على عدم جواز التخابر لصالح العدو، ولا يجوز للمسلمين أن يتخذوا من أعداء الله أولياء يلقون إليهم بالمودة ..

حظر الشعارات والهتافات غير الأخلاقية :
وفي نشوة الفتح، وشذى النصر الفواح، صاح قائد الأنصار سعد بن عبادة :
" الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ ! الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ! "

فَقَالَ النبي – صلى الله عليه وسلم - : "كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ "[صحيح البخاري (3944)]
وأمر بالراية - راية الأنصار - أن تؤخذ من سعد بن عبادة كالتأديب له، ويقال: إنها دفعت إلى ابنه قيس بن سعد.[ابن كثير: 559/3].
وفيه، دلالة على حظر فحش القول وهُجره في الشعارات والهتافات، خاصة في المؤتمرات والتظاهرات، فليس من أخلاقنا، أن نتخلق بأخلاق الغوغاء ممن يتهفون بأفظع الهجاء . فإذا هتفنا أو شعِرنا أو نَظَمْنا الشعارات، أو نثرنا الأسجاع؛ في تظاهرة أو مؤتمر، فإنما يكون بأطايب الكلام، وبأحاسن الألفاظ، فديننا دين مكارم الأخلاق . والله يكره الفاحش البذيء، واللعان الطعان .

تواضع الفاتحين الإسلاميين

كأنه وهو فرد من جلالته *** في عسكر حين تلقاه وفي حشم

ودخل نبي الله – صلى الله عليه وسلم – مكة، شاخص الطرف، باسط الكف، شاكرًا حامدًا ربه، خفيض الرأس، معتمًا بعمامة سوداء، وهو واضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل..
ويلهج صوته بالقرآن، قارئًا سورة الفتح .
يتراءى للناس رويدًا رويدًا، كالكوكب المشبوب رونقًا وبهاءً.
يَشقُ بجحافله البيداءَ شقًا، شامخًا باذخًا، في جَلْجَلة وصَلْصَلة، يحفه خير أجناد الله، عليهم وَقَار البطولة، ومَخَايل الظفر .. كلهم ، كلهم في انتظار إشارة منه لتتحول مكة إلى حمام دم، ومذبحة يشيبُ لها الأمْرَد، وخسف وهدم، ليدمدموا مكة على رءوس المشركين ، فهم الذين عذّبوا المسلمين أيام عهد مكة، وسجنوهم وحصروهم وأخرجوهم .
ولكن ما حدث ليس ذلك، بل أصدر العفو العام .

العفو العام عند المقدرة

وماذا عن العفو العام، الذي أطنب فيه المفكرون عبر حقب التاريخ ؟
بعدما أمنَّ الجميع، في بيوتهم ومساجدهم، وقال: : "كُفُّوا عَنْ الْقَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً" [الترمذي: 3054]، وقال : " لا يُقْتَلُ قُرَشِيٌّ صَبْرًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " [مسلم : (3334)].
يقول "واشنجتون ايرفنج"، في كتابه (حياة محمد)، معلقًا على قرار العفو العام:

"كانت تصرفات الرسول [صلى الله عليه وسلم] في [أعقاب فتح] مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو" [واشنجتون ايرفنج : حياة محمد 72 .].

ويقول : إميل درمنغم :

"فقد برهن [محمد ρ] في انتصاره النهائي، على عظمة نفسية؛ قلَّ أن يوجد لها مثال في التاريخ؛ إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحذرهم أن يهدموا البيوت، أو يسلبوا التجار، أو أن يقطعوا الأشجار المثمرة، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا في حال الضرورة القاهرة، بل رأيناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً ويقول لهم: إن نفساً واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء ! " [انظر: بشرى زخاري ميخائيل : محمد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل، ص50].

إن أخلاقيات العفو العام، هي أخلاقيات تمخضت عن نفوس أُشربت الربانية، وشربت من كأس التربية ثمالتها، وإن أمثال هؤلاء ممن تربوا على التراحم فيما بينهم والتآخي والتغافر، لخليق بهم أن يحملوا راية التمكين في الأرض، فما أعظم هذه النفوس التي ذاقت ويلات التعذيب في رمضاء مكة، حتى إذا أمكنهم الله من رقاب أعداءهم، أَعطوا العفو، وجنَّبوا القود، فمسألة التمكين عند هؤلاء الإسلاميين ليست حكاية تصفية حسابات، وليست حكاية غرس أعواد المشانق لمن شنقوهم، فشنقًا بشنق وتنكيلاً بتنكيل، وليست قضيتهم قضية مطالَبات وتِرات، وثارات ودِيَّات، بل يعتبرون الإيذاء ضريبة التمكين، ووسام على صدور المؤمنين.. فهؤلاء الإسلاميون لا يحملون بين جنباتهم جذوة الثأر، إنما يحملون بميامنهم شعلة القرآن، وبميامنهم الآخرى شعلة السُنة، وبين ذلك يحملون قلبًا خالصًا للرب، صادقًا في الغاية.

إنتماء القائد لأنصاره:

ويكأن الناظر ظن، أن رسول الله ضن بأهله المكيين، فأصدر عفوه، وأمنَّ عدوه، فقال: " مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ " [مسلم : (3332)].

فقال بعض الأنصار : أَمَّا الرَّجُلُ [يقصدون النبي صلى الله عليه وسلم] فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ !

فنبَّأه العليمُ الخبير ..
فجمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الأنصار ، وقال :
"قُلْتُمْ أَمَّا الرَّجُلُ فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، أَلَا فَمَا اسْمِي إِذًا ! ؟ أَلا فَمَا اسْمِي إِذًا ! ؟ أَلَا فَمَا اسْمِي إِذًا ! ؟ أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ،هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ، فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ !! "
فبكوا، وأرسلوا عبرات الحب، وزفرات الضن بقائدهم، قائلين :
" وَاللَّهِ مَا قُلْنَا إِلا ضِنًّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ! " ..
وتفَّهمَ القائد هذه المشاعر النبيلة، وكأنه لامس مشاعرهم الصادقة في سيوداء قلوبهم ، فقال :
"فَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ" [مسلم : (3332)].

يا صاحب الفتح ! صلى الله عليك !
لقد قيض الله لك أنصارًا لا يطمعون في شيء بين الخافقين إلا في رضاك عنهم وقربك منهم . ولا يبغون لعاعة من الدنيا، إنما يأملون أن يعودا إلى ديارهم في المدينة المنورة - وقد رجعوا بك في رحالهم .

يوم برٍ ووفاء
وجاء علي بن أبي طالب، يطلب من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يجمع له شرف الحجابة مع السقاية، وقد كان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة، وقد طلب النبي منه تسليم المفتاح ليصلي في جوف الكعبة، ثم رده إليه قائلاً :
" هَاكَ مِفْتَاحَك يَا عُثْمَانُ ، الْيَوْمُ يَوْمُ بِرّ وَوَفَاءٍ " [ابن هشام 412/2]
ولم يكن يوم ظلم وعدوان. أو مكر وخُتل.
وقد كان في استطاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يضع مفتاح الكعبة في بني هاشم أو في يد زعيم من زعماء الصحابة . فقد كان إعلاء قيم البر الوفاء أولى من الاستئثار بمفتاح الكعبة، ولم يكن من شيم الفاتحين الإسلاميين سلب الأملاك وكرائم الأموال ونفائس الآثار؛ إن ذلك من شأن الإنقلابيين الفاسدين الذي إذا وصلوا إلى سُدة الحُكم – جَبريةً - ، أكلوا كل شيء عنوة، قصور ومجوهرات، ومال وعقارات- كما فعل أصحاب الثورات النكدة السوداء، حيث يتحول فريق الإنقلاب من أبطال كفاح ونضال، إلى لصوص كبار، ومعربدين فجار، وخونة غَّدار، فلا يتركون صادحًا ولا باغمًا، ولاخفًا ولا حافرًا، ولا شيئًا مما تنبت الأرض من قثائها وفومها وعدسها وبصلها إلا أتوْ عليه، حتى لعاعة الفقير اللابط بالأرض،

الـذي يبيـت طاويًـا، لا يجـد أكسـار بقـرة .. يشـتهي ظِلفَـا يمسـك رمقـه، أو عرقوبًا يُطفىء لوعته، ولا يجده .

***

هذه دروس في أخلاقيات الفتح؛ تشي بأحقية الناشيء الصابر في الظفر والتمكين والسؤدد، فأقرب الدعاة إلى التمكين أحاسنهم أخلاقًا، وأحق الدعوات بالنجاح أكارمها أخلاقًا، وكذلك الحال في الجماعات والدول والحضارات، فالأخلاق عماد الحضارات، وكم من حضارة زالت بشؤم ظالم فاسد، وعربيد خليع، ومرقص لعوب !

وكم من أناس عاشوا يزفون الفتوحات إلى الأمة، ولم يغنموا من غنائم النصر عقال بعير، أو سلاح غفير، فقضوا نحبهم دون أن تتمرغ أجسامهم في ريش النصر وفراش النعيم والوثير؛ وكانت القبور مساكنهم . فلهم ثواب الله . فأنعم به وأكرم من ثواب !

وآخرون قطفوا ثمرة الفتح سهلة، وقد تعبَ وجاهدَ في سبيلها غيرهم، ونسوا حظًا من تعاليم الإسلام، وطال عليهم الأمد، وقست قلوبهم، وتلَّهوا بالنساء والبنين والمال والأنعام والحرث، وشغلتهم أموالهم وأهلوهم عن منهج الله، واستوردوا دساتير اليهود والنصارى، واتَّبعوهم في ثقافاتهم حذو القذة بالقذة، وتصعلكوا لأعداء الأمة، وجلبوا للمسلمين كل مَضَرَّة ومَعَرَّة .. وأوليئك هم الرُّقعاء السفهاء، الذين أضاعوا المجد، وباعوا العِرض، وهم لصوص الأمة، وإن اعتلوا ذُؤابة منبر المجد، الذي بناه الفاتحون الصادقون.

فعسى الله أن يأتي بفتح جديد، وفاتح مجيد، فيعود المجد التليد !

عُرْوَة بْن مَسْعُودٍ الثّقَفِيّ .. الإصلاح حتى الرَمَقِ الأخير !

رجل من القريتين عظيم :

هذا الرجل، كان من وجهاء العرب، وكان هو المعني بقول المشركين – كما حكى القرآن - : " لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، فالأول هو الوليد بن المغيرة عظيم مكة، والثاني هو ذا، عروة بن مسعود عظيم الطائف. وكأن الله أراد أن يهدي إلي الإسلام أحب العظيمين إليه سبحانه، كما أدخلَ الله في الإسلام أحب العمرين إليه، فكان أحب العظيمين إليه عروة، وكان أحب العمرين إليه عمر بن الخطاب.

وكأن يد الله ترسم الحكمة في شخص..

ذلك الشخص الذي أرادوه نبيًا، وقالوا إنه أحق بالنبوة من محمد – صلى الله عليه وسم -، هاهو ذلك العظيم " عروة " ينضم إلى الجماعة المسلمة، ليكون رجلاً من رجالات الدعوة .
إن عروة هذا، هو هذا الذي أرسلته قريشٌ يومَ الحديبية [في العام السادس] لتوبيخ النبي – صلى الله عليه وسلم – ومحاولة إدخال الرعب في نفوس المسلمين، فقدم يكلم النبي – صلى الله عليه وسلم –، وعاد إلى قريش يقول يومها:
يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنّي قَدْ جِئْت كِسْرَى فِي مُلْكِهِ ، وَقَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ . وَالنّجَاشِيّ فِي مُلْكِهِ . وَإِنّي وَاَللّهِ مَا رَأَيْت مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطّ مِثْلَ مُحَمّدٍ فِي أَصْحَابِهِ وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا ، فَرَوْا رَأْيَكُمْ " [ابن هشام 2 / 312] .

لقد هزته هزًا عنيفًا؛ تلك الروح الأخوانية – الممتزجة بالتوقير- التي تراءت له في هذا المشهد العجيب، حين جعل يرمق أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – بعينيه، وقد أُذن للصلاة، وأراد رسول الله الوضوء، " فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نُخَامَةً، إلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُم؛ فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا [البخاري : 2529].

***

إلى ركب الدعوة

ومرت الأيام ..
ولا زال يحمل عروةُ هذا الموقف الخلاب في سويداء قلبه.
حتى إذا فتح الله مكةَ على نبيه، وأراد غزوة الطائف – المعقل الأخير للوثنية -، فحاصرها، وقد كان عروة في هذه الأثناء منتدبًا إلى اليمن، ليتعلم صناعة الدبابات والمنجانيق، ثم رجع عروة إلى الطائف وقد رجع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عنها، فأنشأ عروة في عمل الدّبّابَاتِ وَالْمَنْجَنِيقَ وَالْعَرّادَاتِ لقومه، حتى قذف الله في قلبه الإسلام، فقدم المدينة فور قدوم رسول الله – صلى الله عليه وسلم - من الطائف؛ فشهد عروة شهادة الحق في حضرة النبي – صلى الله عليه وسلم -.
ولَمْ يسأل عروةُ إمارة أو وزارة أو زعامة، وهو سيد من سادات العرب- ، وله الأيادي البيضاء على كثير من العرب – لا سيما في الدماء والديات-.

ولـمْ نسمع أنـه سَمَّع بمكانتـه، أو دخل الإسلام سُمعةً، ولـم يُؤثر عنـه حُب الشـهرة، أوالـنَّفج والاستطالة، أوالكبـر أوالزهـو .. لقد كـان خفيض القلـب تواضعًا، سريع الانبتات إلى الله !

ولـم يسأل عـروةُ صـاحبَ الـدعوة شرفًا، إنمـا سأل شـرف الجنديـة، عضـوًا عاملاً في الكتيبة المحمدية، ولم يشترط أن يكون رأسًا في الإسلام بحجة أنه رأس في غيره، وهؤلاء الصادقون نراهم في كل زمان .. ألم تسمع يومًـا أن أديبًا كان ملىء السمع والبصر في وسائل الإعلام، قد هداه الله إلـى طريـق الـدعوة، فسـخر قلمـه ومـداده وقراطيسـه لخدمـة الإسلام، وقد عَلِمَ قَبـلُ، أن المجد الإعلامي الزائف سيرحل عنه إذا رحلَ هو إلـى كتيبـة الـدعوة، فركل وسائل التزييف، وكان جنديًا مخلصًا لدعوة الله، ثم مضى شهيدًا إلى ربه ؟!
ولم يطلب عروةُ شرفًا، سوى شرف الدعوة إلى الله، فقال في نفس اليوم الذي أسلم فيه :
" يَا رَسُولَ اللهِ، اِيذَنْ لِي؛ فَآتِيَ قَوْمِي، فَأَدْعُوَهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَوَاللهِ، مَا رَأَيْت مِثْلَ هَذَا الدّينِ ذَهَبَ عَنْهُ ذَاهِبٌ . فَأَقْدَمُ عَلَى أَصْحَابِي وَقَوْمِي بِخَيْرِ قَادِمٍ، وَمَا قَدِمَ وَافِدٌ قَطّ عَلَى قَوْمِهِ إلا مَنْ قَدِمَ بِمِثْلِ مَا قَدِمْت بِهِ، وَقَدْ سَبَقْت يَا رَسُولَ اللهِ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ." [انظر: الواقدي 3/960-961].

فهـي شـعلة الإيمـان التـي تتقد فـي قلـب المـؤمن، فـلا تـزال تنفث شـذاها، لا تنطفىء أبدًا، ولا يهدىء له بال حتى يُبَلّغَ رسالةَ ربه إلى الخلائق.
ويريـد عـروة أن يسـرع إلـى قومـه، وكأنـه يـركض إلـيهم لإنقـاذهم مـن الطوفـان. وهكـذا المسلم لا تلقـاه إلا داعيًـا، ولا تفارقـه إلا داعيًـا، ولا تسـمع عنه إلا داعيًـا، يحمل بين جنبـات نفسـه شعور الاهتمـام بالـدعوة وإحسـاس الإنقـاذ، يحمـل فـي وجدانـه همـة عاليـة، أو همـة سـبّحاح أوضـفدع بشـري يغوص في لجج البحر لإنقاذ الغرقى.
وفي ثنايا هذا الفوران الإيماني في قلب عروة .. قال رسول الله – صـلى الله عليه وسلم - :
" إنّهُمْ إذًا قَاتِلُوك " !!!
قَالَ : " يَا رَسُولَ اللهِ، لأنَا أَحَبّ إلَيْهِمْ مِنْ أَبْكَارِ أَولادِهِمْ . "
فقد بلغتْ مكانته فيهم مبلغًا يضرب بـه المثـل . وهكذا يصـطفي الله لدعوتـه أكارم الناس في أقوامهم، وخيارهم؛ خيارهم لقومه وأهله، وأنفعهم لهم .

ثُمّ اسْتَأْذَنَهُ الثّانِيَةَ فَأَعَادَ عَلَيْهِ الكلام الأول .

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مكررًا - : " إنّهُمْ إذًا قَاتِلُوك " !!!
فقال عروة – في إصرار على المضي قدمًا والصبر على ما يلقاه في سبيل الله - : " يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ وَجَدُونِي نَائِمًا مَا أَيْقَظُونِي ." .
يريد أنهم يهابونه، ويهابون حتى إيقاظه من نومه . فمع خيريته فيهم، إلا أن ليس بالشخص الذي يُستهان به، فمع صلاحه فيهم تجده شخصًا وقورًا مُهبًا.

وَاسْتَأْذَنَهُ الثّالِثَةَ.. فقد عزمة عزمة تخر لها الرواسي، وتزول لها القور والأكم.
فَقَالَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم - :
" إنْ شِئْت فَاخْرُجْ " [الواقدي 960/3].
***

إلى ركب الإصلاح :
وكأنما تنفس الصعداء، وقد أحْزمَ الرجلُ إذ عزم، فخرج سراعًا إلى الطائف، سير الحبيب إلى حبيبه، وقطعها في خمس، ورُبّ عجلةٍ تَهبُ رَيْثا، وقِدمَ على أهله عشاء، ودخل منزله، ولم يأت صنم اللات كعادة الجاهليين، فلم يصلِّ لها ولم يطف بها، ولم يَحلق لها، وقد كانوا يسمونها " الرَّبة " – فهي أنثى – وليست رب – فباتت عباداتهم لذات فرج ونهد ! -، وقد كان من عادة المسافر فيهم ألا يدخل بيته حتى يطوف بهذه الركسة.
والتمسوا العذر لسيادهم لمشقة السفر، أو لحَرٍ أو قَرٍ، وقالوا : "السّفَرُ قَدْ حَصَرَهُ " .
وجاءوا بيته، فَحَيّوْهُ تحيةَ الشركِ، فأنكر عليهم تحية الشرك، وقال : "عَلَيْكُمْ تَحِيّةُ أَهْلِ الْجَنّةِ" . السلام . ثم دعاهم إلى الإسلام . فغضبوا، وشتموه. وبات بيتُه في جَلَبة . وقال – يريد إقناعم - : " يَا قَوْمِ أَتَتّهِمُونَنِي ؟ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنّي أَوْسَطُكُمْ نَسَبًا ، وَأَكْثَرُكُمْ مالاً ، وَأَعَزّكُمْ نَفَرًا ؟ فَمَا حَمَلَنِي عَلَى الإسلام إلا أَنّي رَأَيْت أَمْرًا لا يَذْهَبُ عَنْهُ ذَاهِبٌ فَاقْبَلُوا نُصْحِي ، ولا تَسْتَعْصُونِي . فَوَاَللّهِ مَا قَدِمَ وَافِدٌ عَلَى قَوْمٍ بِأَفْضَلَ مِمّا قَدِمْت بِهِ عَلَيْكُمْ "[الواقدي 960/3]. . فقد جاءهم بمنهج الله الذي فيه نجاتهم، وبشرعة الإسلام التي فيها الحل كل الحل والعلاج كل العلاج لمشكلاتهم .
فازدادوا تجرئًا عليه، وقد اضمروا له الشر، وقالوا :
"قَدْ وَاللاتِ، وَقَعَ فِي أَنْفُسِنَا حَيْثُ لَمْ تَقْرَبْ الرّبّةَ . وَلَمْ تَحْلِقْ رَأْسَك عِنْدَهَا، أَنّك قَدْ صَبَوْت ""[الواقدي 960/3] ..

وخرجوا من عنده، يَأْتَمِرُونَ، كيف يصنعون به، حتى إذا طلع الفجر؛ أَوْفَى عَلَى غُرْفَةٍ لَهُ، فأذن للصلاة، فرماه رجلٌ، فَأَصَابَ أَكْحَلَهُ فَلَمْ يَرْقَأْ دَمُهُ، حتى إذا أشرف على الموت َحُشِدَ عشيرته وقد أرادوا الثأثر، وجمع عشيرة القاتل، وآخرون من قومه وقال للجميع :
"لا تَقْتَتِلُوا فِيّ ! فَإِنّي قَدْ تَصَدّقْت بِدَمِي عَلَى صَاحِبِه، لِيُصْلِحَ بِذَلِكَ بَيْنَكُمْ ! فَهِيَ كَرَامَةُ اللهِ أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا ! الشّهَادَةُ ! سَاقَهَا اللهُ إلَيّ، أَشْهَدُ أَنّ مُحَمّدًا رَسُولُ اللهِ، خَبّرَنِي عَنْكُمْ هَذّا أَنّكُمْ تَقْتُلُونَنِي ... ادْفِنُونِي مَعَ الشّهَدَاءِ الّذِينَ قُتِلُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - قَبْلَ أَنْ يَرْتَحِلَ عَنْكُمْ ." . ففعلوا. وبلغ الخبرُ المدينةَ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : "مَثَلُ عُرْوَةَ مَثَلُ صَاحِبِ يَاسِينَ دَعَا قَوْمَهُ إلَى اللهِ عَزّ وَجَلّ فَقَتَلُوه" . [انظر: الواقدي 3/960-961].

***

إلى ركب الشهداء :

وصاحب ياسين هذا، هو الرجل الصالح الذي قص الله قصته في سورة ياسين، قال تعالى :
" وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{20} اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{21} وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{22} أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{23} إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{24} إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{25} قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ{26} بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ{27} ".

واستجاب الله تعالى لرغبة عروة، في قولته :"لا تَقْتَتِلُوا فِيّ؛ فَإِنّي قَدْ تَصَدّقْت بِدَمِي عَلَى صَاحِبِه، لِيُصْلِحَ بِذَلِكَ بَيْنَكُمْ "، فأصلح الله قومه، ودب النور في قلوبهم، تبين لهم صدق سيدهم، الذي تصدق بدمه عليهم، فكأنما كانت دماؤه زيتًا يضيء لهم شموع الإيمان ..وجاء وفدُهم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في شهر رمضان المبارك في العام التاسع - فور عودة الجيش الإسلامي من تبوك – ، وأسلم وفد ثقيف، فكانوا ثمرة جهد عروة، وفي كفة حسناته يوم القيامة إن شاء الله .

لقد أشبه عروةُ المسيحَ خِلقة وخُلقًا، أما في الهيئة، فقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مُحدثًا عن رحلة الإسراء والمعراج - :

" عُرِضَ عَلَـيَّ الأنبيـاء، فَـإِذَا مُوسَـى ضَـرْبٌ مِـنْ الرِّجَـالِ كَأَنَّـهُ مِـنْ رِجَـالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السلام، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِـهِ شَـبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ " [مسلم :244] .

وأما أخلاق عروة، فأنعم بها من خلال، وحدّث بها طلاب الدعوة، كيف ترك هذه الرجل - الحسيب الشريف الشهير – نحلته، فجعلَ مُنَتـه في سبيل الله، وضحَّى بصحبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – والتي لا تُقدر ثمن، فذهب إلى قومه مبشرًا ونذيرًا، وصبر على جهل المجتمع صبرًا حتى الموت، حتى كان شبيه صاحب ياسين، فهو صاحبه في السيرة والمسيرة والخاتمة والجائزة، فكان هتاف عروة في قبره كهتاف صاحبه : "يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ".

***

إصلاح وشهادة :

وفي قوله : "لا تَقْتَتِلُوا فِيّ ! فَإِنّي قَدْ تَصَدّقْت بِدَمِي عَلَى صَاحِبِه، لِيُصْلِحَ بِذَلِكَ بَيْنَكُمْ ! "

دلالة على تجرد المسلم لغايته، وصدقه المحض فيي إصلاح عشيرته، حتى إنه تصدق بدمه على القاتل، ليحقن عروةُ الدماء، وليكون هذا الصنيع منه فاتحة خير وصلاح لقومه، فلإن غاب جسمه فقد بقيت أخلاقه، وانتفض " إصلاحه " حيًا بين الناس، بعدما برَاهم الجهل وأعياهم الظلم، إن قضية الإصلاح كانت تجري في عروق عروة، فهو الذي تحمّل دية قتلى المغيرة من شعبة، وهو الذي توسط بين المسلمين والمشركين يوم الحديبية ونقل لهم مشهد توقير الصحابة للنبي – صلى الله عليه وسلم -، وهو الذي وفد على الملوك والزعماء شرقًا وغربًا، والكل يشهد بعلو كعبه في الإصلاح، وعلوّ قدره عند الزعماء، وقد جاب الفلوات بين قادة العالم يطلب الخير والمجد لقومه، وفوق ذلك عُرف بكفه الواسع، وبيته الجامع، وعطاءه الماتع. ومن عاش على شيء مات عليه، وخيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام، وكانت خصلة الإصلاح خصلة من خصال عروة في جاهليته وفي إسلامه، حتى كانت آخر كلماته، تدعو قومه أن يجتمعوا على ما فيه صلاحهم. إنه إصلاح الدنيا بالدين، إنه الإصلاح حتى الرمق الأخير !

لقد مات الرجل وهو يصلح بين الناس، فنعم الخاتمة، ونعم الشهادة إذًا؛ إذ قال عنها فرحًا بها، مغتبطًا بكارمتها، مسرورًا بفضلها :

"فَهِيَ كَرَامَةُ اللهِ، أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا ! الشّهَادَةُ ! سَاقَهَا اللهُ إلَيّ".

إصلاح لله، وشهادة في سبيل الله، هكذا كانت خاتمة سيد العرب، وأحب زعماء العرب إلى الله .

بخٍ، بخٍ، كرامة الله لعباده المصلحين هي حسن الخاتمة، والشهادة خير جائزة، تلك التي يسوقها الله سَوق الإبل الوخادة إلى معاطنها- ومعاطن الشهادة في مُهَجِ المصلحين الصادقين .
ويسوقُ سيد الطائف لقومه؛ آيةً على نبوة محمد بن عبد الله، قائلاً :
"أَشْهَدُ أَنّ مُحَمّدًا رَسُولُ اللهِ، خَبّرَنِي عَنْكُمْ هَذّا، أَنّكُمْ تَقْتُلُونَنِي ...".
أخبره بأنهم قاتلوه لجلافتهم ولنخوتهم في الباطل، ولإسلامه، وكفره برَّبةِ الجهل والعار .
و لقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أدرى بقوم عروة من عروة ، وهكذا القائد الإسلامي، أدرى الناس بالناس . فلقد كانت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – خبرةٌ، وتجربة مُرة مع أهل الطائف، عندما جاءهم في عام الحزن داعيًا، فشتموه وضربوه وطاردوه، وأغروا به السفهاء والغوغاء والزعانف، حتى ألجئوه إلى بستان خارج الطائف، يحتمي به.

***

يا سيد الطائف !
كانت وصيتك الأخيرة - وأنت أحد الأحدين –أن يُوارى جثمانُك مع أشلاء السابقين، في رياض الشهداء؛ فقلتَ – تطلب السؤدد - :
" ادْفِنُونِي مَعَ الشّهَدَاءِ، الّذِينَ قُتِلُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - قَبْلَ أَنْ يَرْتَحِلَ عَنْكُمْ ." .
فأردتَ – يا عروة - أن تلحق بحمزة، وعجِلتَ ، وعجّلتَ بذلك قبل رحيل المصطفى إلى ربه، لتكون صحبة الشهداء لك بها مَحجة .
وهكذا المؤمن، الموت في سبيل الله أسمى أمانيه، والشهادة في سبيل الله أسنى مراميه، ومَدفنٌ مع الشهداء خير نواديه .
يارب ! مَكّنّ لنا في الأرض وَوَفقْ ... لنشر كتابك دستورًا للجميع
يارب ! وهب لنا ثواب الدولة .... والجهاد والشهادة ودفنًا بالبقيع

توصية عملية :

امض في طريق إصلاح المجتمع، ولا تتلبث، شارك وساهم في كل فعالية من شأنها أسلمة المجتمع، ومجالات العمل مع المجتمع مفتوحة، في المساجد، والمدارس، والجامعات، ومقار العمل، والشوارع، والنوادي، والمتنزهات، والمقاهي، والصالونات الأدبية، ومجالس الصلح والتحكيم، وليكن لك مشاركة في كل هذه الأبواب. ومن سَرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، وما الحزمُ إلا أن تَهمَّ فتفعلا !
وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

إصدارات المؤلف

- نبي الرحمة .. الرسالة الإنسان ، جدة : دار الخراز
- غـزوات الرسـول - صـلى الله عليـه وسـلم – دروس فـي آداب الحـرب والسلام، القاهرة: دار النشر للجامعات.
- صـنائع المعـروف " ثلاثـون بابـا مـن أبـواب الخيـر " : المنصـورة : دار الوفاء

للتواصل مع المؤلف:
الأستاذ محمد مسعد ياقوت
yakoote@gmail.com
yakut.blogspot.com
www.nabialrahma.com
0020104420539
0020122885240